فصل حوراني

الحنين

حكاية عودة

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

أخرجت من فلسطين وأنا في العاشرة بعد سنة من التطوح على الدروب الممتدة بين المسميّة التي ولدت فيها وغزة التي ألجأتني إليها ظروف 1948. ومنذ ذلك الوقت، عشت في المنفى وكابدت ما يكابده المرغم على الابتعاد عن وطنه وكواني الحنين. غير أن أوجاع الغربة لم تشتد في أي وقت بمقدار ما اشتدت بعد أن لاحت فرصة العودة إلى فلسطين وعاد نفر من أصحابي فعلا وصرت أنا في أحاديثهم صاحبهم الذي بقي في الغربة.

ست وأربعون سنة، بل سبع وأربعون، جسد سابح في فضاء لا أرض له، وروح هائمة في الضيق كأنها جنّي يتنقل وهو محبوس في قمقم. الذراع جناح. والساق مجداف. والدروب متشعبة. درب يبعدني عن خطر. ودرب يوصلني إلى خطر آخر. ومفاصل العمر ترسمها المرائب ومحطّات القطارات والموانئ والمطارات. والمآوي جميعها مؤقتة. لم أتوقف عن التنقل إلا حين كان يحتجزني قرار حظر السفر من بلد أو يشملني حصار. وعلى كثرة ما تنقلت، لم يكن لي مكان واحد أقيم فيه وهو يخصني فأشعر نحوه بالولاء، ولم أختبر ظرفا اخترته أنا بإرادتي فأهنأ به. ست وأربعون، بل سبع وأربعون، تبدّلت الأماكن خلالها بأسرع مما تتبدّل الأماكن في الأفلام، وتعاقبت الظروف بأعجل مما تتعاقب في الحكايات. فهل كان غريبا بعد هذا الذي طال أمده أن أضيق بأي مكان حتى وهو أجمل الأمكنة وأيّ ظرف حتى لو كان أدعى الظروف إلى الانشراح!

كنت ما أكاد آلف مكانا وأتعرف على ناسه حتى أجدني مرغما على الابتعاد ومكابدة أوجاع الفراق، فصرت أقتصد في الاستجابة للألفة أو أتجنبها. وما أكثر ما أقمت في أمكنة ثمّ رحلت عنها دون أن يبقى لي منها ما يشدّني إليها. مئات الناس، بل ألوفهم تعرّفت عليهم في بلد أو غيره، وعشرات المحافل، بل مئاتها، والعديد من مقرّات العمل وزملائه، وما لا عدّ له من العلاقات، فماذا بقي لي من هذا كلّه، لم يبق في واقع الأمر إلا ما له صلة بالشأن الذي أنشغل به، الشأن الذي يكاد يكون هو الوحيد الذي يشغلني: الوطن الذي أبعدت عنه وناسه، المكان الذي حُرمت من العودة إليه والناس الذين أتوق إلى الاختلاط بهم.

جُبت عوالم الشرق والغرب، لم تبق جهة لم أزرها. ركبت إبل العرب، وبغال الأتراك، وخيل المغول، وأفيال الهنود. تفرجت على القرود وهي تتقافز بين الأشجار، والأفاعي وهي تتلوّى في سلال الحواة. وشهدت مصارع ثيران وديوك. أنزلت سنّارتي تحت الجليد في نهر موسكو. وتجوّلت في سوق السمك في شاتليه باريس وراقبت بائعاته اللواتي يتحولن في الأماسي إلى بغايا. طفت في المتاحف ومعارض الفنون والمكتبات العظيمة. وقصدت مواقع الآثار في كل مكان يخطر ببالكم. وشاهدت أعظم العروض في أعرق المسارح. واستمعت إلى أمهر العازفين. قابلت شتى أصناف الناس، عوامّ ونابهين، ثواراً ومحافظين، مستقيمين ومنحرفين. وألفت أذناي جرس لغات عديدة. خبرت المدهشات حتّى لم يعد شيء يدهشني. فماذا بقي. لا شيء إلا أن يكون مما له صلة بحكاية حكاياتي كلها. وحكاية حكاياتي هذه تتلخص في حاجتي إلى مكان يخصّني، مكان أشعر نحوه بالولاء، أحس بأن فيه ما يخصني.

الذين قذفوني إلى خارج قريتي المسميّة ثمّ إلى خارج وطني كله وأنا طفل، ظلوا يطاردونني بينما أنا أكبر، شاؤوا أن أبتعد عن الوطن أكثر فأكثر، ظنّوا أنّي سأنسى حاجتي

إلى العودة بمقدار ما أبتعد وسأيأس إذا طال الفراق. غير أنّي، أنا المطارد، ظللت أطارد حاجتي، لم أنسَ الوطن، ولم أيأس، ولم أكفّ لحظة عن تنمية الأمل بالعودة. أسكنتُ وطني في روحي، فَرَدتُ له مساحة الرّوح وفيها نمّيتُه كما ينبغي لأي وطن أن ينمو، وجمّلته. وهل يمكن لوطن الروح إلا أن يكون دائم النموّ وجميلاً. ونقلت وطني معي كلما انتقلت. لم أعش في الغربة دون رفيق، فقد ظل المتوطّن في روحي هو رفيقي الدّائم. ولأنّ من أقصاني عن وطني قد أقصى وطني ذاته عن وطنه، فقد عشنا معاً، غريب ووطنه الغريب. في الغربة، عشت مع الوطن؛ اللاجئ يعيش مع وطنه مادام محروماً من العيش فيه.

لن أروي لكم حكايتي في المنفى، فقد رويت جلها في ما كتبت، وما تجهلونه منها مماثل لما تعرفونه من غيرها يكاد لا يزيد عنه ولا ينقص، وأنا لست من هواة التكرار. ولن أزيد أثقالكم بالحديث عن الآلام التي كابدتها منذ فاجأني اتفاق قيادة منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل، هذا الذي اشتهر باسم اتفاق أوسلو. ولعلّ بينكم من يعلمون أني عارضت هذا الاتفاق. وأنا لم أعارضه لأني ضد الاتفاق مع العدو إذا وفر الاتفاق أسساً لحلٍّ عادل ومستقرّ، فقد ثابرت منذ احترفت الكتابة على الدّعوة إلى مثل هذا الحلّ، حتى حين كان معظم الفلسطينين ضد أي حلّ. بل عارضت لأني لم أجد في اتفاق أوسلو ما يوفر أسس العدل أو الاستقرار. امتص الاتفاق كل قطرة في ضرع القيادة الفلسطينية، وكبّل هذه القيادة بحزَم من القيود، وأوجب عليها أن تلغي سلاح الانتفاضة، ولم يقدّم لها مقابل هذا غير وعود غامضة، قبض ريح لا يملأ أي يد. فهل كان بإمكاني، أنا الذي احترف الدعوة إلى حل تستقر به الأحوال، إلا أن أعارض الاتفاق الذي رأيت أنه يبعد المنهمكين في الصراع عن مثل هذا الحلّ.

و لكم أن تعرفوا أني لم أجهر بمعارضتي فور إعلان الاتفاق، لم أنشر رأيي، بل قلت لنفسي: تقدم بك العمر، والذين يطلعون على رأيك قد يتأثرون به، وهذه خطوة ليست مثل أي خطوة سابقة، فالاتفاق يؤثر على مصير الشعب الفلسطيني لأجيال عدّة وأنت من هذا الشعب، فلا يجوز أن تصدر حكمك بخفّة، لا يجوز أن تحكم على الاتفاق بتأثير الانطباع العاجل، ولا يجوز خصوصا أن تنشر رأيك قبل أن تحصّنه بالبراهين وتتيقّن من صوابه.

منذ نشر الاتفاق، قرأته، وكرّرت قراءته. لم أثق بالترجمة، فقرأت النصّ المعتمد، هذا المكتوب بالإنجليزية، واستعنت بمن هم اخبر منّي في اجتلاء دلالات النصوص. وتابعت الأنباء والتعليقات. وتقصيت وجهة نظر المؤيدين والمعارضين. والتقيت من أعرفهم ممن فاوضوا الإسرائيليين، الذين فاوضوا على مسار مدريد العلني في ظل الرعاية الدولية له والذين فاوضوا على المسار السرّي الثنائي في أوسلو، هذا الذي لم يُقِرّ أي طرف دولي بأنه رعاه. ولمّا كان كثيرون ممن فاوضوا هم من أصحابي، فما أيسر ما استقصيت التفاصيل وتفاصيل كل تفصيل!

وفي سياق الاستقصاء، ظفرت بخلوة مع ياسر عرفات، القائد الذي تعدّدت ألقابه فلم أعد أدري أيّها أكثر ملاءمة له، الذي امتدت مسؤوليته فاستحوذت على مسؤولية أي مسؤول غيره ولم يعد بمقدور أيّما أحد أن يعرف حدودها أو يوقفها عند حدّ. بدأ الرجل الذي أكرمني بتخصيص خلوةٍ يستمع فيها إلى رأيي سعيداً بالاتفاق. فهل كان هذا تظاهراً أملته حاجة القائد إلى اجتذاب الآخرين لتأييده إزاء المعارضة الواسعة؟ ربما كان الأمر كذلك، وربما كان

الرجل سعيداً حقاً بالفرصة التي رأى أنها انفتحت. وقد تأنّى الرجل في الاستماع كما تأنّى في الشرح مخالفاً عادته، هو الذي يتولّى أموراً عدّة في وقت واحد فلا يجد وقتاً كافياً لأيّ منها.

في هذه الخلوة، وإزاء ما ظهر من عدم اقتناعي، لم يبسط أبو عمّار الآمال التي يعوّل عليها، هذه التي صرتم تحفظونها عن ظهر قلب لكثرة ما ردّدها، بل كشف هواجسه أيضاً وبسط رؤيته لأبعاد المجازفة التي رأى أنه مقدم عليها وهو يعي أخطارها. قال عرفات إنّ عدوّنا مخاتل فلماذا لا نأخذه بختله، قال إنه اغتصب أرضنا قطعةً قطعة فلماذا لا نستعيدها بالأسلوب ذاته، وحقوقنا، قال عرفات، ما الذي يضرّ إن استعدناها حقاً بعد حق. غزّة وأريحا أولاً، كما هو عنوان الاتفاق الذي يلخص مضمونه، هذا قليل حقاً، أقرّ عرفات، لكن كلّ إضافة إليه ستنمّيه، استدرك، وابتسم لأفهم ما يضمره، ثم قال: "جنحوا للسلم فما الذي يمنع أن نستجيب، هم مخادعون؟ فمن الذي قال إننا سننحّي الحذر، ألا تعرف أني سيد الحذرين".

لم يكن الرجل الذي لا تبارحه الهواجس حتى إزاء أبسط الأمور بحاجة إلى تذكيري بهذه السمة التي هي من أخصّ سماته، فأنا أعرف كم هو حذر حقاً. قلت هذا وأضفت أني أعرف أيضاً أن لُعبَ الختل تغوي الواثق بقدراته. أمّا ما أحجمت عن ذكره أمامه فكان معرفتي أنّ ياسر عرفات معتدّ بنفسه في هذا المجال، خصوصاً هذا المجال، واعتداده بنفسه هذا يشجعه على المجازفة. والواقع أني لو أجزت لنفسي أن أبتسر الصراع مع الصهيونية فأعدّه مبارزة يفوز فيها الأذكياء لربما أقنعني كلام القائد الذي بدا حريصاً على إقناعي. غير أن الأمر ليس هو هذا، إنكم تعرفون ما هو الأمر، وللذكاء دور دون شك لكنه ليس الدور الحاسم، والركون إلى الذكاء يتحول إلى فخّ يوقع بصاحبه حين يهمل الذكيُّ حساب القوى أو يخطئ الحساب. ومن الذي لا يعرف أن غلطة الشاطر قد تصير أخطر الغلطات!

بسطت رأيي. واستعنت بما يعرفه عرفات فاستحضرت تجارب الذين بدّدوا الوقت والقوى في المجازفة وأخطأوا الحساب، حجوم القوى وطبائعها، العدو المسلح بالقدرات وبضمنها ذكاؤه المشهود به، الوضع الإقليمي، الوضع الدولي، وما إلى ذلك مما يُستحضر في هذا المجال. وخلصتُ إلى القول بأنّ المجازفة غير مضمونة العواقب هذه المرّة ومن الخطأ أن يقدم الفلسطينيون على ما قد يؤدّي إلى هلاكهم.

لم يوافقني القائد الذي كان قد شرع لتوّه في مغامرة يراها جليلة، لكنّه لم يظهر أي ضيق بمعارضتي. ولم أوافق أنا القائد الذي يستطيب الإقدام على المجازفة في حدّ ذاته، لكنّني أدركت أن ليس من الممكن ثنيه عن ما شرع فيه. ومن أنا حتى أتمكن من إقناع عرفات بالتوقف! وقد ينبغي أن أقرّ بأن ما أظهره أبو عمّار من سعة صدر وهو يستمع إليّ قد خلّف في نفسي أثراً طيباً، بل لأقل إنّه أسرني. والحقيقة أن أسر القائد إيّاي استحكم حين أقرّ هو بحقي في أن أعارض سياسته وتأثيره عليّ بلغ ذروته حين قال: "احتفظ برأيك، بل انشره إن شئت، ولنتحاسب بعد ذلك في ضوء النتائج!". ومن الذي لا يأسره أن يضعه رجل له مكانة ياسر عرفات في موضع الندّ!.

لقد بدا عرفات واثقاً من أنه سيفلح. ولأن تسامح الرجل الكبير إزاء تشدّدي في الاعتراض أحرجني، فقد وجدتني أقول إني سأعارض، لكنّي لن أنشر رأيي قبل أن أتيقّن من صوابه، ولن أهاجمه هو شخصياً في أي حال. وبدا لي أن الرجل الذي استمع وهو يبتسم أسعده ما قلته. وعند هذه النقطة، انتهت الخلوة، وانضمّ آخرون إلى المجلس. وفي حضور هؤلاء، حيث كررت بعض آرائي بشأن الاتفاق، سألني أبو عمار بنبرة وديّة: "ألن تذهب معي، إذن، إلى غزّة أنت الذي يعترض على اتفاق يعيدنا إليها؟". فقلت، وقد أدركت أن حجة القائد هذه هي سيدة حججه، إن غزة جزء من الوطن، وقد عشت فيها سنة بعد إقصائنا عن المسمية، ولي فيها ذكريات طفولة، وفيها أمي وإخوتي وعدد كبير من أقربائي، وقد انضمت إليهم مؤخراً ابنتي لَمى وزوجها عَديّ، وأنا مستعد لأن أرجع إليها في أي ظرف، إن كانت السلطة فيها للمحتلّ أو كانت لنا.

والواقع أني عنيت ما قلته حين تحدّثت عن رغبتي في العودة إلى الوطن أيا ما كانت عليه الظروف. وفي فيينا التي أعتزل فيها منذ سنوات متفرغاً للكتابة، تابعت مسألة عودتي هذه، وتابعها أصحاب لي كثيرون، بمبادرة منهم أو بناء على طلبي. وقد عاد أبو عمّار ومرافقوه، عاد فوج، تلاه فوج، تلتهما أفواج. وكاد العدد الذي أتاح الاتفاق عودته يستوفى فتنسدّ الطريق. عاد ألوف بينهم أصحابي المهتمون بعودتي وأنا أنتظر. وقد انتظرت شهراً وشهوراً، وانقضت سنة ومضت شهور من السنة التي تلتها وأنا ما أزال أنتظر. أما لماذا طال انتظاري فلهذا قصة وإليكم بيانها.

فقد إنداحت نتائج الاتفاق التي تعرفونها، إنداحت بأسرع مما توقع أيّما أحد. واتضح حتى للذين أعماهم إفراطهم في التفاؤل أن ختل العدو المسلح بتفوقه المادي هو الذي يرسم هذه النتائج. حصلت إسرائيل على ما توخته من الاتفاق ولم تف بما التزمته، وقصّر نهج القيادة الفلسطينية، هذا الذي سمّيته أنا نهج استرضاء العدوّ، عن إلزامها. أفرطت القيادة الفلسطينية في التنازل فظل لسان حال إسرائيل يصرخ: هل من مزيد! أن تنحّي وسائل الضغط على الظالم ثم تطالبه بأن ينصفك يساوي أن تدرج نفسك بنفسك في البلهاء. وفي هذه الأثناء، أخرج مستنقع الفساد الفلسطيني ديدانه وقد انفتح أمامها مجال جديد تلعق فيه ما تقع عليه، دون رقيب أو حسيب. وتنمّر الفاسدون على شعبهم، فالفساد يستولد القمع، فيما هم أنفسهم يمعنون في التطامن إزاء العدو. استرضاء العدو واستفزاز الجمهور، وجها العملة التي يتداولها الفاسدون.

ولكم أن تعرفوا أنّ ما أوجع روحي ليس هو سلوك إسرائيل. فقد ألفت أن أرى في الصراع مع إسرائيل قضية عامة، قضية كفاح ضد الظلم ينعش الإنهماك فيه الرّوح وينمّي أجود ما فيها. ألا ينعش الكفاح من أجل العدالة أيّ روح. ولطالما أمتعني الانهماك في المعامع وجدّد ألق روحي! أمّا ما أوجع الروح فهو سلوك ناس السلطة الفلسطينية، ناس القيادة وناس الحلقات التي تحفّ بالقيادة أو تتمتع بحمايتها، خصوصاً سلوك أصحابي من هؤلاء وهؤلاء. ما فعله العدوّ بعد الاتفاق ظلّ من طينة ما كان يفعله قبله، مائة سنة قبله. لم تطو إسرائيل راية الظلم وتحلّ محلها أي راية أخرى. ولم يفاجئني أن تفسّر إسرائيل بنود الاتفاق بما يوائم مصالحها وتتعسف في التفسير لتستحوذ على ما هو مشروع وما هو غير مشروع أيضاً من المكاسب. ولم يفاجئني أن تمعن إسرائيل في نهجها المألوف، فتفرط في استخدام سلاحها المتفوق، وتكبل السلطة الفلسطينية التي أنشأها الاتفاق بألف قيد وتبتزها في كل لحظة. أما ناس السلطة الفلسطينية فهم الذين استبدلوا سلوكاً

بسلوك ورايةً براية، هم الذين استبعدوا الضغط الماديّ وأفرطوا في اللين واشتدّ هوسهم في إظهار التسامح، وهم الذين طووا راية الثوّار واستكانوا في الفخّ الذي حشروا فيه ورفعوا حتى داخل الفخّ راية الحكّام. وهذا هو ما أوجع روحي.

ألم تشهدوا بأم أعينكم كيف أمعنت السلطة في استرضاء العدوّ كلّما أمعن العدوّ في التضييق عليها والفتك بكرامة شعبها وحرياته وأرزاقه وكيف استشرى في غضون ذلك الفساد. هل كانت هذه سذاجة، أو سوء تقدير، أو رضىً بالفتات الذي يسّر العدو لقليلين الظفر به حتّى يستعين بهم على الكثيرين. ولماذا استمرّ تمسّك القيادة الفلسطينية بالرهان حتى بعد أن ظهر خطله، لماذا استمرأ المجازفون الإمعان في المجازفة حتّى بعد أن انسدّت سبل النجاة. وما الذي جناه الجمهور حين أمعنت قيادته في ترويج الأوهام. وإذا كان هذا كلّه مما يمكن أن يقع فيه أي طالب تسوية حين يخطئ الحساب، فما الذي يبرر تنمّر السلطة على ناسها فيما هي مستكينة أمام العدو.

ضاق تصبّري بما خزنته، فأذنت لمخزوني بأن يفيض. تعذر علي الاستمرار في الصمت فأذنت للساني بأن ينطلق. ولما لم يكن من الجائز أن أنتقد القيادة وأغفل المسؤول الأول صاحب القرار، فما أشدّ ما قسوت في انتقاد ياسر عرفات!

لم يجيء إذنُ العودة إلى الوطن، ولم أتلق جواباً على رجاءاتي المتكررة حين ألححت على تعجيل استصداره. وفي البداية لم أربط بين حجب هذا الإذن وبين أي رد فعل مفترض على ما أكتبه، ذلك أني ألفت احترام الجميع حريّة التعبير في السّاحة الفلسطينية. غير أن شيئا ما وقع فأرغمني على الانتباه إلى أنّي معاقب وأن حجب الإذن جزء من هذه العقوبة.

هذا الشيء له حكاية بدأت منذ ابتدأت المفاوضات السرّية في أوسلو. فقد أوقفت القيادة صرف رواتب معظم العاملين في مؤسسات م.ت.ف. وقيل إن السبب هو شحّ الموارد الماليّة. واستمرّ الوقف شهوراً عانى خلالها الذين انقطعت مواردهم متاعب ومهانات لا حصر لها. ومنذ تسرّب أول الأنباء غير الرسمية عن وجود مفاوضات، استخلص ذوو الفطنة أن القيادة تعمّدت وقف الصرف مؤملة في أن تتضاعف الحاجة إلى مورد فيقبل العاملون في صفوف م.ت.ف. نتائج المفاوضات إذا استؤنف صرف الرواتب. والذي حصل بالفعل أن الصرف استؤنف بعد إعلان الاتفاق، استؤنف بتقنين بدا أنه مدروس ليفي بالغرض، يلبّي بعض الحاجة ويبقي القلق من احتمال وقف الصرف من جديد. وتوقعت، بالطبع، أن يجيئني راتبي أنا الآخر أسوةً بالآخرين. غير أن أملي لم يتحقق. ومضى شهر ثم شهور إلى أن تيقنت من أني معاقب على ما أكتب والعقوبة تشمل وقف الراتب أيضاً، وهو الراتب الذي لا مورد لي سواه، أنا المتفرّغ للكتابة بقرار حمل توقيع رئيس اللجنة التنفيذيّة ياسر عرفات، منذ 1989.

لقد احتججت بالطبع. ولكن الرجل الذي انضاف إلى ألقابه لقب رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية رفض حتّى أن يتسلّم رسائل الاحتجاج التي أرسلتها إليه، وعنّف كل من حمل إليه رسالة مني شفهية أو مكتوبة وكل من شاء التدّخل لصالحي. صدّ أبو عمّار سعاة الخير، وما كان أكثرهم، وأسكت كل من حاول أن يذكّره بحاجتي، أنا الذي يعيش في فيينا بغير مورد، أو حتى بمكانتي عنده، أنا الذي طالما أظهر هو في السابق أنه يعزّني.

كانت تلك هي، إذن، عقوبة حجب لقمة العيش ونبذ العائش في الغربة ورميه إلى المهانات. أطع ترزق، قل ما يلائمنا لِتُطعَم أو نسدّ فمك، اتبع مالِكَ لقمة عيشك أو ابقَ جائعاً إن استطعت أن تصبر على الجوع! إنّه السلاح الذي استخدمه الطغاة في كل عصر، صغيرهم وكبيرهم، وهو السلاح الذي طالما فاخر ياسر عرفات قبل الاتفاق بأنه لا يستخدمه.

تردى الحال، إذن. حشر قادة ثورة التحرير أجسادهم في زيّ الحكام قبل أن يستقل الوطن أو يجلو المحتل عنه وقلّدوا من الحكّام أشدّهم ضيقاً بالنقد وأقساهم يداً على الجمهور. السجون التي احتبس فيها الاحتلال الإسرائيلي المناضلين من أجل الحرية استخدمتها، هي ذاتَها السلطةُ الوطنية، وكثيراً ما احتبست فيها معتقلين كان الاحتلال قد اعتقلهم هم أنفسهم. الأفواه التي عجز المحتل عن سدّها، والعزائم التي فشل في ليّها، والإرادات التي عجز عن قهرها، هذه كلها تولى ناس السلطة معالجتها بدعوى الحاجة إلى إعطاء الاتفاق فرصة والكفّ عن استفزاز العدوّ حتى لا يتنصل منه. ولئن لم تصُبَّ السلطة الوطنية على الجمهور الحجم ذاته من القمع الذي صبّته سلطة الاحتلال، فمرد هذا إلى اختلاف الظروف والتفاوت في حجوم القوّة والقدرة. لكن طبيعة القمع تظلّ هي هي لا يبدّلها تبدّل الرايات. القمع هو القمع، والفساد، وكل ما تعرفونه. وعلى ضآلة حجم القمع الذي مارسته السلطة حين يُقارن بما فعله المحتلّ، فقد بدا القمع الوطنيّ هو الأوجع، أليس صحيحا أن ظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة من ظلم الغرباء!

ولقد وُضع الناس أمام معادلة بدا كأن لا فكاك منها. إن عارض الناس سياسة السلطة وسلوكها، قال قادة السلطة إنهم ثوار تحرير وفي ثورات التحرير يتحد الجميع. وإن طالب النّاس القادة بأن يسلكوا سلوك الثوار، قال هؤلاء إنهم حكّام وللحكم حاجاته. ووقع الناس في حيرة؛ إن قاوموا السلطة فإنهم يضعفونها فيستفيد العدوّ الذي يريدها ضعيفة لتزيد سطوته عليها وعليهم ويتمكن من ابتزازها وابتزازهم، وإن استكانوا إزاء سلبيات سلطتهم فإن استكانتهم تشجّع القامعين والفاسدين، وفي هذا خدمة للعدو، وأي خدمة، خدمة مضاعفة!

و في مراقبتي للحال الآخذ في التردّي، رأيت أن الوقت قد يطول قبل أن ينعتق النّاس من أسر هذه المعادلة البغيضة. ولم أقتنع بأن السكوت جائز بسبب هذا. لم أر حكاماً حرّروا البلاد وانصرفوا إلى بناء مؤسسات الحكم الوطني المستقل فأقدّر حاجتهم إلى المساندة وأغضّ النظر عن أخطائهم. ولم أر ثوار تحرير فأغضّ النظر عن سلبياتهم. ولم أقع على ما

يلزمني حبس سخطي. ولماذا أحبس السخط، ولماذا يحبس سخطه أيّما أحد حين يكون هو واحداً من المكتوين بالنار.

و فيما أنا منهمك في الحملة على القيادة ورئيسها، واصلت السعي كي أظفر بإذن العودة إلى الوطن. وصرت بحاجة إلى أن أمكث في مكان قريب يوفر لي فرص الاتصال بناسي الذين أندبهم للمساعدة. ولكنّي كنت ممنوعاً من الدخول إلى كلّ من مصر والأردن، أقرب بلدين إلى غزّة وأريحا حيث نشأت السلطة. ولما تعذر أن أجد وسيلة تيسر لي دخول مصر، فلم يبق غير الأردن. وكان طريقي إلى هذا البلد، أنا الذي حظر علي دخوله منذ أيلول/سبتمبر 1970، قد انفتح جزئياً في العام 1991، فتحته مبادرة طيبة من الدكتور أسعد عبد الرحمن، صديقي الذي صار المدير العام لمؤسسة شومان الثقافية في عمّان. فقد ندبني أسعد لإلقاء محاضرة في موسم المحاضرات الذي تنظّمه المؤسسة وظفر بإذن يبيح لي دخول الأردن لمرة واحدة استثناء من حظر الدخول. ولأن نجاح المحاضرة وسعادتي بالزيارة حفزا أسعد على توفير فرصة أخرى، فقد تكررت دعوتي لإلقاء محاضرات. وبهذا تيّسر لي أن أجدد صِلاتي بأقربائي وأصدقائي في البلد الذي يقيم فيه جلّ الأقرباء وعدد كبير من الأصدقاء. وعندما اشتدّت حاجتي إلى إطالة المكوث في عمان، سعى أسعد إلى توفير حق الإقامة الدائم لي في البلد، غير أن جهده لم يفلح في زحزحة الحظر. أما ما وفر لي هذا الحق في نهاية المطاف فكان جهد رجل لن أنسى فضله علي هو حاكم الفايز الذي تخطّى محظورات كثيرة يفرضها هو على نفسه واستخدم مكانته كي يتوسط لي فمكنني من الظفر بحق الإقامة، فتوفر لي أن أجيء إلى البلد متى أشاء وأمكث فيه كما أريد.

وبتوفر هذه الفرصة، وبوجود صديق العمر الدكتور منير الحمارنة الذي يستضيفني في منزله، تسنى لي أن ألتقي من أحتاج الإلتقاء بهم من القادمين من الأرض الفلسطينية. وما أكثر الذين التقيت بهم، وما أكثر الذين حاولوا من هؤلاء أن يعود إليّ راتبي وأظفر بإذن العودة إلى الوطن دون أن يفلحوا!

في هذا النحو، انقضى ما بقي من العام 1993 بعد التوصل إلى اتفاق أوسلو والعام 1994 الذي عاد عرفات في أوله إلى الوطن ومعظم العام 1995. وبقيت أسير مضاضة مضاعفة: الافتقار إلى مورد والافتقار إلى إذن العودة.

وها أنا ذا أتذكر واحداً من أصحابي جاء إلى عمان فيما أنا أبحث عن حل لمشكلتي فندب نفسه لحلها. سأعطي لهذا الصاحب اسماً غير اسمه، هو الذي تعدّدت على أي حال

الأسماء التي عرف بها، سأسميه عائد، وسأبدأ بأن أنقل إليكم ما ابتدرني به فور لقائي إيّاه: "الجم لسانك ودع الباقي عليّ، أضمن لك استئناف دفع رواتبك والعودة!".

سمعت النصيحة القبيحة فأدركت كم تبدّل عائد منذ عاد وكم تطامن. وقد باح عائد الذي كان يشغل منصباً يضعه في السلطة قريباً من رئيسها بما يعرفه من شأني عند الرئيس. فعرفات، هذا الذي سماه عائد حتى أمامي أنا سيادة الرئيس، ساخط علي لأنّه لم يتوقع أن أخذله أنا الذي طالما وقفت في صفّه في أصعب المواقف، وهو يتهمني بأنّي خالفت عهداً قطعته على نفسي أمامه بأن أصمت فلا أهاجمه. لم يكرر عائد، إذن، الترهات التي روّجها غيره، لم يزعم أن فوضى البيروقراطية هي التي أوقفت صرف راتبي، لم يدّع أن السلطة طلبت لي إذن العودة وأن إسرائيل هي التي لم ترد على الطلب حتى الآن، بل واجهني بالحقيقة: سيقتنع سيادة الرئيس بالإفراج عن رواتبي إن أظهرت ما يتوقّعه مني أنا الكاتب الذي لم يخذل قيادة شعبه الوطنية ولم تقصّر هذه القيادة في إكرامه. واستحضر عائد حقيقة أن سيادة الرئيس هو الذي يسّر لي الحصول على حق التفرغ للكتابة فليس من العدل أن أجنّد قلمي للهجوم عليه. وأكد عائد أن أشد ما يسخط الرئيس هو استهدافي إيّاه شخصيا بالنّقد. وكرّر عائد ما بدأ به: " الجم لسانك قبل أن تأمل بأي حل!".

كان بقائي بلا مورد طيلة ما كاد يبلغ سنتين ونصف سنة قد عرّضني لمهانات يخجلني أن أبوح بها. ولو لم تستمر زوجتي في العمل، هي التي استحقّت التقاعد فأرجأت الظفر به، لربما تعرّضنا هي وأنا إلى ما يصعب تصوّره. وكانت أمي التي بقيت في غزة منذ لجأنا إليها في العام 1948 قد توقعت أن أعود إليها مع أوائل العائدين. بل إن أمي، مثلها مثل أي أم تبالغ في تصوّرها لمكانة إبنها، توقعت أن أدخل غزّة في موكب ياسر عرفات وأكون إلى جانبه عندما احتشد الجمهور لاستقبال زعيمه القادم من المنفى. أكلّم الأم المشتاقة فيكون أول ما أسمعه على الهاتف "متى أراك؟". أمنّي أمي المتلهفة إلى لقائي بقرب اللقاء فتقول: "أخشى أن أموت قبل أن ألقاك". وأصحابي الذين عادوا، الأصحاب الذين ألفتهم في المنافي وشهدت معهم معامع الثورة وخبرت وإياهم الحلوة والمرة، أصحابي هؤلاء راحوا يترقبون عودتي ولا يكفون عن حثّي على تليين موقفي كي أعود، يقول واحدهم على الهاتف ما يقوله من ألقاه منهم في عمان إن بعض التنازل لا يضرّ خصوصاً إن كانت العودة إلى الوطن هي المكافأة، يرددون هذا ويستحضرون ما كنت أنا نفسي أردده على مسامعهم: النضال من الداخل أجدى، ويضيفون: انتقل مركز الثقل من المنفى إلى الوطن، فلماذا المكابرة.

كان عائد مدفوعاً برغبته في مساعدتي حين طلب مني أن ألجم لساني، إلا أن مطالبته إيّاي بالتنازل الذي لا أقدر عليه أحنقتني. ألا يُحنق الكاتبَ أن يُطالب بالكفّ عن بثّ أفكاره، وبأي شيء يختلف كتم الرأي عن ترويج الآراء الزائفة.

- لن يرجعوني إليك يا أمي.

كنّا في صيف 1995، آخر هذا الصّيف، وكان هذا هو ما قلته لأمّي على الهاتف بعد أن فارقت عائد محنقاً. ولم تغالب أمي هذه المرة أساها.

- رباح هنا، وأنت هناك، تريدان أن تقيما الدين في مالطا بعد أن فسق الجميع، أصحابكما يخزنون المال ولهم الجاه، وأنتما تعاندان، فيتعب الخوف على رباح قلبي ويفري الشوق إليك كبدي.

ورباح الذي ماثلت أمي بينه وبيني في العناد هو رباح مهنّا، أخي منها، واحد من أخوين ولدتهما أمي لزوجها الذي تزوجها بعد رحيل أبي. وكان رباح مثلي منهمكاً في العمل العام، كما كان، مثلي، معدوداً في المتزمتين حين يتعلق الأمر بدواعي الطهارة الشخصية. أما موقف رباح السياسي فقد اختلف عن موقفي، فهو واحد من زعماء الرفض ومعارضته لاتفاق أوسلو ناجمة من معارضته كلّ تسوية مع إسرائيل، في حين نجمت معارضتي أنا من خشيتي أن لا يفضي الاتفاق إلى أيّ تسوية وأن يبدد فرص عقد تسوية معقولة.

أوجعني أن يبلغ أسى أمي حدّ التعريض بموقف ابنيها. ولكي تدركوا لماذا أوجعني أن تقول أمي ما قد تقوله أيُّ أم، فلكم أن تعرفوا أني ما كلمت أمي مرة قبل هذه المرّة إلا شجعتني على الثبات. وما أكثر ما كانت أمي تتفاخر برباح وبي، أمي ذات الجَلد، أمي التي لم تهن أبداً، فكيف لا يوجعني أساها!

أما لَمَى، كبرى بناتي الثلاث التي انتقلت هي وزوجها عَديّ منذ بعض الوقت إلى غزّة فهي لا تحثني بلسانها على شيء، لكن حنيني إليها، هي التي سعدت بالإقامة في وطنها بعد طول التطوح في أوطان الآخرين، كان يحثني. ولئن لم تقل لمى شيئاً لأنها ألفت أن تتجنب الضغط عليّ، فما كان أقوى ما بثه صمتها، وما كان أوجع أن أظل عاجزاً عن تلبية توقها إلى أن تلتقي بأبيها على أرض الوطن!

حملت وجعي وقصدت أسعد عبد الرحمن. ولعلها المرة الأولى التي سمعني فيها أسعد وأنا أتوجّع. وبعد أيام قليلة، وقد صرت أنا في فيينا، جاءني صوت هذا الصديق على الهاتف وكلماته الوجيزة؛ إنه ذاهب إلى غزة ليلتقي ياسر عرفات، وهو بصدد عقد صفقة معه وبودّه أن يضع مشكلتي في مقدّمة البنود. "لا يشغلني شيء بأكثر مما تشغلني مشكلتك"، قال أسعد هذا، وسأل عما إذا كان لديّ أيّ شروط.

جاء هذا العرض فيما كانت نفسي تراودني على أن أتخذ أنا المبادرة وأتصل بعرفات وأطلب المصالحة. تضافر ضغط الحاجة مع أسى أمي وأشواق لمى وإلحاح أصحابي وتأثير قناعاتي وكل شيء من هذا القبيل، فجعلني طالب مصالحة. وبالرغم من تشدّد عرفات في رفض أي وساطة بشأني، فقد أدركت أن وقت حلّ المشكلة قد حان. فالرجل الذي اتبع رهانا لم يتحمس له من المثقفين النزهاء إلا قليلون وجد نفسه محاطا بحشود المتملقين ومستثمري علاقاتهم به لتوسيع مفاسدهم والذين هم من هذا القبيل، واشتدت عزلته عن الآخرين، ولا شك في أنه تائق إلى الموازنة بين هؤلاء وهؤلاء. والواضح أن أسعد الذي لم يُفتن بأوسلو لكنّه لم يساهم في الهجوم على عرفات قد استخلص ما اسخلصته وعزم على أن يجد لنفسه دوراً في مركز الصورة الذي انتقل إلى الوطن.

- لي شرط وحيد هو على كل حال شرط إجرائي أعلم أنه سيستجيب له إن كان راغباً في حل المشكلة.

وأغلب ظني أن أسعد توقع أن يسمع شرطاً جليلاً، ولهذا فإنه فوجئ حين لم أشترط إلا أن أظفر بخلوة مع عرفات لا يقاطعنا خلالها أحد ولا ينصرف هو إلى مشكلة أخرى، عشرين دقيقة، ليس أكثر، لكن ليس أقل.

قد يفاجئكم أنتم الآخرين أن أضع هذا الطلب البسيط بمثابة شرط، أنا الذي لم أضع أيّ شروط أخرى. فاعرفوا، إذن، ما عرفته مما آل إليه أمر ياسر عرفات بعد أن عاد إلى الوطن. فهذا الرجل هو رجل الاستحواذ على أي صلاحية، وقد اتسم تاريخه كله منذ كان رئيساً لرابطة طلاب فلسطين في القاهرة بسعيه الحثيث إلى تكديس الألقاب والاستحواذ على كل صلاحية متاحة. وبعد أوسلو. بعد العودة إلى الوطن، حين ضاقت حلقة منافسيه وزاد عدد المتطامنين أمام استحواذه على صلاحياتهم، صار ياسر عرفات هو المستحوذ الوحيد على كل صلاحية. ولم يعد من الممكن قضاء حاجة لمواطن أو تصريف أمر إلا بموافقة عرفات وتوقيعه. استوى في هذا أن تكون الحاجة معالجة مرض امرأة فقيرة أو بناء ميناء وأن يكون الأمر أمر شراء تذكرة سفر لموظف مغادر في مهمة أو تشكيل الوفد الذي سيمثل

فلسطين في أعلى القمم. وكان عرفات كثير الأسفار، فصار وقته حين يستقر في مكتبه، وقته القصير في واقع الأمر، مثقلاً باجتماعات الهيئات القيادية والمجالس العليا العديدة واللجان متعددة الأغراض التي هو رئيسها جميعها. وكان على الرجل أن يقرأ ألوف الأوراق التي ترد إلى مكتبه أو تسلم إليه باليد كل يوم من طلاب قضاء الحاجات الخاصة والعامة الذين لا يتوجهون إلا إليه، كما كان عليه أن يستقبل عشرات الوفود والزوار. وانتهى الأمر إلى أن صار المطالب بالبتّ في كل طلب يقرأ الأوراق المكومة أمامه فيما هو يرأس اجتماعاً أو يستقبل وفداً أو زائراً. وصار عرفات يوزع انتباهه بين الجالسين أمامه وشؤونهم وبين الأوراق، ويواصل القراءة والتوقيع فيما هو يتحدّث أو يستمع. وقد ألف رواد مكتب عرفات الفلسطينيون جميعهم، جميعهم بغير استثناء، هذه الاستهانة السافرة بهم أو بالهيئات أو بالوفود التي هم أعضاء فيها. وبوضعي شرطي، شئت أن يعرف من أتوجه إليه من أجل المصالحة أني أطلب أن أحظى بانتباهه كاملاً واحترامه ولا أرضى بأن يُستهان بي.

- اركب أوّلَ طائرة وتعال إلي في عمان!

في لقائه مع عرفات، قال أسعد للقائد الذي استقبله بترحاب إنه راغب في أن يكلمه بشأن شخص يعرف أنه، هو عرفات، يحبه ويقدّره ولا يريد له إلا الخير. كان هذا هو أسلوب أسعد. وبهذا الأسلوب، هيأ صديقي القائدَ الساخط عليّ ليتلقى شكواي وطلبي.

- استجاب دون ممانعة وامتدحك، إنه يعزّك فعلا.

وقد حمل لي أسعد الذي لم يفته ذكر ضائقتي المالية ثلاثة آلاف دولار دفعةً على حساب رصيد رواتبي الموقوفة وإذن زيارة منحته لي السلطات الإسرائيلية بناء على دعوة لزيارة غزة موجهة إلي من مكتب الرئيس، وهو إذن يبيح لي أن أبقى في غزة زائراً لمدّة شهر. وقال أسعد غير متستر على سعادته بما تمّ إنجازه: "سيستقبلك، خلوة، كما طلبت".

جزء من رصيد رواتبي وليس الرصيد كله وإذن زيارة وليس إذن عودة، إلا أن هذا الفارق لم يوهن عزمي على حلّ المشكلة. ولم أُضِع الوقت في مراسلات جديدة. إنها خطوة في مقابل ما تصور القائد أنها خطوة منّي. ليكن! حسوب هو هذا الذي أعرفه معرفة تامة، بل بارع في الحساب كلما تعلق الأمر بمجافاة الآخرين أو اجتذابهم. حلُّ مشكلتي المالية كلّها قد يعزّ عنادي الذي رأى هو أنه بدأ ينحل. وإذن الإقامة يبقيني في الوطن حتى لو لم يشأ

هو أن أبقى. مبلغ يمكنني من الوصول إليه، وإذن يبقي موضوع إقامتي في يده. ولأقرّ:
!إني أقدر ذكاء الأذكياء

- أنا في الطريق إليك يا أمي.

- تَعِدُني ثمّ لا تجيء.

- أقول لك هذه المرّة إني على الطّريق. أنا قادم إليك غداً من كلّ بدّ.

لا بدّ من أن نبرة الصوت الجازمة حملت إلى الأم المتشككة ما طمأنها.

- أنت متأخر في كل حال. الذين سبقوك لم يبقوا لك منصباً تشغله أو شيئاً تسرقه.

أوجزت التي راق مزاجها وصف الحال بهذه السخرية اللاذعة. فجاء الوصف الوجيز أدلّ على
!الحال من أي وصف. وما أشدّ اعتزازي بأن أكون ابن هذه الأم

هل علي أن أروي لكم تفاصيل رحلتي إلى أرض الوطن، هجرتي الأخيرة التي تطلعت إلى أن أختم بها مسلسل الهجرات المتعاقبة. تعرفون دون شك كيف يعامل الإسرائيليون الفلسطينيين، كيف تستولد العنصرية القبيحة سلوكها القبيح. فإن تصورتم أني حظيت بمعاملة مختلفة لأني ضيف القيادة التي عقدت الصلح مع إسرائيل أو لأن لي المكانة التي تنسبونها أنتم إليّ أو لأن آثار الداء الذي يفتك بعامودي الفقري ظاهرة للعيان، وإن تصورتم أن وجعي إزاء معاينة التطبيق الفعلي للاتفاق كان أخفّ من أوجاع غيري ما دمت قد عارضت هذا الاتفاق مسبقاً ولم أعلل نفسي بأي أوهام، إن تصورتم أي شيء من هذا القبيل أو ذاك، فكفّوا من فضلكم عن التصوّر إلى أن تعرفوا ما الذي جرى!
نعرف أن المكتوب يُعرف من عنوانه. وعنوان الوضع الذي أنشأه اتفاق أوسلو دلني عليه ما وقع على معبر الحدود. وأوّل حروف العنوان ظهر عند البوابة التي تسدّ جسر اللمبي أو جسر الملك حسين، الجسر الخشبيّ القصير والضيّق الذي يصل فلسطين بالأردن. فهنا توقف الباص أمام أول حاجز إسرائيلي. وكنّا ما نزال في أول الخريف، فكان حرّ الغور لاهباً، فلم يُسعفنا المكيّف الكليل في الباص العتيق. ومنذ توقّفنا، تلا سائق الباص التعليمات التي يبدو أنه يتلوها في كل رحلة وبدا حريصاً على أن يفهمها كلّ راكب: ابقوا جالسين في مقاعدكم، ممنوع الوقوف، وأخطر منه الحركة داخل السيارة، ولا تغطّوا النوافذ بالستائر، ولا تنسوا أن التدخين ممنوع! ولم يكن وراء القضبان الحديدية للبوابة ما يساعد على أن نفهم لماذا أوقف باصنا فيما راحت القضبان تنفرج كلّما وصلت إلى أحد جانبي البوابة سيارة إسرائيلية. وقد طال الانتظار واشتدّ وقع اللهب. وكان عسكر إسرائيل الذين تفصلنا عنهم القضبان دائبي الحركة أو منهمكين في أحاديث، دون أن يبدو أن وقوفنا داخل الصندوق المعدني الملتهب يشغل بالهم أو أن معاناتنا تثير فيهم أي مشاعر. وكما توقفنا لسبب غير مدرك، انفتح الطريق لنا دون أن ندرك ما الذي استجدّ فأذن بفتحه.

دامت وقفتنا هذه ثمانية وعشرين دقيقة بزمن عقارب ساعتي أو ثمانية وعشرين دهراً بزمن القهر والهواجس. وكان واضحاً لكلّ منا أنها وقفة ليس لها لزوم إلا أن يكون المحتل مصراً على أن نعرف أنه هو الذي يأذن وهو الذي يمنع حتى مسألة عبور الجسر المفضي إلى أرض الوطن. وهذا هو في أي حال ما تهامسنا به في ما بيننا حين منعنا أنفسنا بأنفسنا من تبادل الحديث بأصوات جهيرة.

الوقفة التالية كانت على الجانب الآخر من القضبان، بعد أمتار فقط من البوابة. هنا، أحاط بباصنا جنود مسلحون راح بعضهم يراقبنا فيما الآخرون يتولون التدقيق في مخزن الحقائب وحنايا الباص وتحت أي غطاء فيه. كان التدقيق الذي تبلغنا أصداؤه بطيئاً، وقد جرى ونحن ملتصقون بمقاعدنا ممنوعون من إتيان أيّ حركة، وهذا بناء على التعليمات التي زدنا عليها نحن أنفسنا بأنفسنا التزام الصمت. وبعدما اطمأنّ جنود إسرائيل إلى أن الباص لا ينقل في أي من مخازنه أو فجواته أو حناياه ما يهدّد الدولة التي يحتلون، هم جنودها، أرض غيرها، صعد جنديان مسلحان ببندقيتين إلى الباص بينما بقي زملاؤهما محيطين به، ووقف احد الجنديين وقفة ترصّدٍ في آخر الباص فيما وقف الجندي الثاني الوقفة ذاتها في أوله. وبهذا، صار كل راكب في مرمى نظرات الجنديين مثلما هو في مرمى رصاصهما. ثم صعد رجل أمن لا يحمل سلاحاً ظاهراً وصعد معه احتقاره الظاهر وبغضه لركاب الباص، بغضه الذي لا

يتستر عليه. وتولى الرجل التدقيق في وثائقنا، لا لشيء، كما اتضح لي، إلا ليتحقق من أن كلّ راكب يحمل ما يجيز له الوصول إلى المبنى الذي تشغله إدارة المعبر. وكان هذا التدقيق هو الآخر بطيئاً، أجراه الرجل بإيقاع ذكرني بإضراب التباطؤ عن العمل. تُقدّم للرجل الأوراق التي يطلبها منهك فيقلّبها واحدة واحدة، ثم يقلّب كلّ واحدة صفحة صفحة، ويقرأ المكتوب في كلّ صفحة، بعضه أو كلّه، ويتأمّل في الصور، ويقارن بين كلّ صورة وبين وجهك، ثم يقارن بين الصورة التي على وثيقة السفر أو بطاقة التعريف وبين التي على إذن الزيارة، يجري رجل الأمن المقارنة دون أن يخفي استرابته، ثم يعيد إليك أوراقك، يعيدها؟ إنه يلقيها نحوك إلقاء فتلتقطها يداك إن كنت منتبهاً أو تقع في حجرك أو تسقط على الأرض، ثم ينتقل هو وبطؤه واسترابته إلى الذي يليك. هذه الوقفة استغرقت أكثر من ساعة بحساب العقارب، ناهيكم بحساب القهر والتأذي !

الوقفة الثالثة كانت إزاء بوابة أخرى تعبرها السيارات كي تصل إلى مبنى إدارة المعبر. هنا، عند هذه البوابة، وقع نظري على جنديّ جالس على الأرض وظهره مسنود إلى عضّاده اسمنيّة وإحدى ساقيه ممدودة أمامه والثانية مثنية وإحدى يديه ممسكة ببندقيّة قائمة بحذائه والأخرى طليقة.

وكان هذا الجندي يتبادل حديثاً مع زميل له ظهره مسنود إلى العضّادة ذاتها وهو واقف وبندقيته في يد فيما يده الأخرى تتحرك في إيقاع بدا مُتسقاً مع إيقاع الحديث. وكانت على رأس الجالس الطاقية التي تظهر انه يهودي متدين، أما زميله فكان يعتمر خوذة الجنود. ولم ينقطع حديث الجنديين بوصولنا، كما أنه لم ينقطع حتى حين كان ذو الطاقية يلتفت ويلقي نحونا نظرة تمتدّ كما بدا لي الوقت الذي يحتاجه ليتيقن من أن معاناتنا وسط اللّهب لم تُنتقص. وقد دامت وقفتنا هذه بزمن عقارب الساعة عشرين دقيقة.
الوقفة التالية، الرابعة على مسافة لا تزيد عن بضع مئات الأمتار، كانت إزاء مبنى الإدارة. هنا، توقّف الباص بمحاذاة رصيف ملتصقٍ بالمبنى فهرع ناحيته مسلّحون كانوا في الانتظار فأحاطوا به. وأبقتنا تعليمات السائق في مقاعدنا. وكنّا هنا، أيضاً، ممنوعين من إتيان أيّ حركة. وعندما تلقى السائق الإشارة المناسبة، أذن الرجل لنا بالنزول مهنئاً إيّانا بسلامة وصولنا مما عنى أن هذا سيكون آخر عهدنا بباصه. وتوجّه كل راكب إلى حيث كُوّمت الحقائب بجانب الباص واستلّ حقيبته من الكومة والتحق بالصفّ الطويل الذي يقف فيه الوافدون قبلنا. ومثل كلّ شيء آخر، كان الصفّ يتحرّك ببطء حتى لكأنه ثابت. وحين بلغت أنا مقدمة الصفّ بعد دهور لم أحسب عددها، وجدتني إزاء فتاة أمن إسرائيلية ومساعدين لها موكّلين باستلام الحقائب. النظرة المستريبة، بل النظرات، والحركات المستهينة، ونبرة الصوت المنتهرة، والتعالي، وفوهات البنادق، وعيون حامليها التي تمسح الواقفين في الصفّ كأنها الكشّافات الضوئية التي تمسح مواقع العدو في زمن الحرب، هذا هو ما أحاطني وأنا مجمد إزاء الفتاة بانتظار أن أعرف خطوتي التالية.

طلبت الفتاة أوراق سفري، وفحصتها، وأجرت المقارنات. وحين بدا أن الفتاة فرغت من فحص أوراقي، شال حمّال من مساعدي الفتاة حقيبتي ووضعها على آلة الفحص. وألصقت الفتاة قسيمة على الحقيبة ثم ألصقت قسيمة مماثلة على وثيقة سفري. ولأنّ هذا كلّه جرى ببطء، فقد أتيح لي أن أتأمل التي أقف مجمداً إزاءها. ولم أصدق أنّ فتاة في أولى عشرينيات عمرها، جميلة ورشيقة وبارزة الأناقة، يمكن أن تظهر لمسافر عابر كل ما أظهرته فتاة الأمن الإسرائيلية من بغض واحتقار لو لم توجب وظيفتها عليها إظهاره. لم يكن

في هيأتي ما ينفّر، ولم أظهر ضيقي بل أرغمت نفسي إرغاماً على التجلّد، فهي إذن، طبيعة المهنة التي تمارسها هذه الفتاة، وهو الموقف الذي وضعها في صفّ المعتدي الصلف، ولعلها، أيضاً، التعليمات التي تتلقاها من رؤسائها. رسمت هذه الطبيعة مشاعر الفتاة وصاغ الصلف سلوكها. وأجازت لها التعليمات أن تحيطني بما أحاطتني به دون تستر أو أوجبت عليها أن تحيطني به. ولي أن أزعم أني رصدت التماعة شعّت في عينيّ فتاة الأمن هذه ففسرتها أنا على أنها التماعة ضيق. وقد تساءلت عما يضايق الفتاة، أهو اضطرارها إلى أن تتصرف بفظاظة، أم هو اضطرارها إلى التعامل مع ناس تبغضهم؟ هل كانت الالتماعة انبجاسة مشاعر إنسانية تكبتها الوظيفة أو تعبيراً عن مشاعر عنصرية تبيح الوظيفة الإفصاح عنها؟ تساءلت، ولم أصل إلى إجابة.

ويبدو أن انشغالي بمراقبة الفتاة أبقاني أمامها أطول مما هو مباح. وقد أخرجني من شرودي فحّةٌ أحسست نثار سمّها على جلد وجهي: "يللا!"، يللا جافرة فحّتها الفتاة وهي تدفعني بأوراقي ذاتها كي أنصرف عنها. والتقطت الأوراق، وتبعتُ الذين سبقوني على خط سير حددته عيون الجنود وفوهّات بنادقهم.

خطوات قليلة أبلغتني مدخلاً تتصدره لوحةٌ مكتوب عليها: السلطة الفلسطينية، وقد رُسم العلم الفلسطيني بجانب الكتابة. وتصورت أني خرجت من دائرة البغض والاحتقار وانتقلت إلى ربعي. لكن، ما أسرع ما انطفأ تصوري!

كنت أمنّي النفس بمتعتين، متعة الملامسة الأولى مع أرض الوطن الذي أعود إليه بعد نفي طالت مدّته ومتعة اجتياز معبر أتعامل فيه لأول مرة في حياتي مع رجال أمن فلسطينيين. المتعة الأولى غاضت في طاقية جنديّ الحاجز العسكري حتى لقد نسيت أمرها نسياناً تاماً. أما الثانية، هذه التي تطلعت إلى الظفر بها لأن الاتفاق نص على أن يكون الوجود الإسرائيلي على معبر الحدود غير مرئي، فقد غاضت هي الأخرى مع توالي المشاهد التي بيّنت كم هو سافر وكثيف ومتسلّط هذا الوجود. وحتى بعد أن عبرت المدخل الذي تتصدره اللوحة، فقد توجب أن أتوقف ثانيةً إزاء فتاة أمن إسرائيلية ومساعدين لها كي تفحصني، أنا نفسي، آلة أشعة عُيّرت بحيث لا يعبرها حتى خاتم الزواج دون أن يثير جلبة. بالرغم من هذا، فإن رؤيتي اللوحة، وما هو مكتوب ومرسوم عليها أثّرت فيّ، وطغى التأثّر على ما كابدته من مرارات. وقد اشتدّ تأثري حين وقعت عيني، بعد عنائي مع آلة الأشعة وفتاتها التي أرغمتني حتى على خلع حذاءيّ، على شاب فلسطيني مشرق الوجه في بذلةِ خدمةٍ جديدةٍ وأنيقة وعلى كتفيه شارات تظهر أنه ضابط، وهو يرحب بالقادمين.

السلطة، والعلم، وهذا الشاب وترحيبه بي، فكيف لا أنسى ضيقي بما مررت به. ولم يكن غريباً أن أحسّ ببراعم فرح تتفتح في داخلي وأنا أستجيب لترحيب الشاب كأنه قريب لي أوفدته الأسرة ليكون في استقبالي. ولقد كان هذا تحولاً في مشاعري، تحولاً كان من شأنه أن ينمو فتواصل البراعم تفتحها لو لم يُعاجلني ما أخمد الفرح واجتثّ كلّ برعم.

استقبلني ناس أمن فلسطينيون، شابّات وشبّان دُرّبوا تدريباً حسناً وهُندموا هنداماً أنيقاً. وأشعرني هؤلاء بأني حقّاً بين أهلي. وفي صدر الصالة التي كنت فيها، جلس أربعة من هؤلاء خلف منصّة اتجهت أنا إليها. وتسلمت أوراقي شابّة في زيّ الشرطة لها سمات ساكني الغور وحلاوة وجوههم. وقد رحبت الشابّة بي وهي تجتهد في إظهار الكياسة، ودققت أوراقي دون استرابة، ثم دعتني إلى الانتظار، وطمأنتني: "لن يطول".

والواقع أن ما لم يطل كان هو ابتهاجي بهذه المعاملة الكيّسة، أما انتظاري فقد طال. فوراء المنصة، وراء ناس الأمن الفلسطينيين وأعلى منهم، تنتصب واجهة بعرض المنصة يستطيع

الجالس وراء زجاجها أن يراك دون أن تراه. وقد انتبهت إلى هذه الواجهة حين وضعت الشابّة الفلسطينية أوراقي في جارور ودفعت الجارور ناحية الجالسين وراءها. ثم رأيت كيف رجع الجارور وفيه أوراق العابر الذي تقدمني في الصف. ولما امتدّ انتظاري وامتدّ دون أن يعيد الجارور أوراقي، فقد بدا على شابّة الأمن الحرج. وقبل أن أمعن في التكهّن، انفتحت سمّاعة مثبّتة على المنصّة، وقال صوت له النبرة التي لفتيات الأمن الإسرائيليات شيئاً بالعبرية، فطلبت منّي الشابة الفلسطينية أن أدير وجهي بكامله ناحية الزجاج حتى تراه صاحبة الصوت. ثم انفتحت السماعة مرة أخرى وصدر أمر الصوت إليّ أنا، صدر بما ظنّت صاحبته أنه كلام عربي: "فيسال، شيل ندّارة!" فنحيت نظارتي عن وجهي؟

أدركت لماذا طال انتظاري، فالمتأملة في صورتي أربكها وضع عينيّ الذي تظهره الصورة مختلفاً عما تراه هي من وراء زجاج واجهتها وزجاج نظارتي الطبية. فأنا أحمل عيناً واحدة طبيعية أما الثانية فصناعية شبيهة بالطبع بالعين الأولى لكنها لا تتحرك مثلها. وفي العادة يجتهد ملتقط صورتي كي تظهر العينان متطابقتين في شكلهما، أما في وقفتي أمام الزجاج وحركة عين وجمود الثانية فقد بدا شكل عينيّ مربكاً للمتأمّلة في الصورة.
وحين رجع الجارور بشيء، تبيّن أنه أرجع وثيقة سفري دون بقيّة الأوراق، وظننت أنهم، وراء الزجاج، لم يفرغوا بعد من تدقيق أوراقي، فوطدت النفس على مزيد من الانتظار. لكن سرعان ما انفتحت السماعة وصدر منها شيء بالعبرية شرحته الشابة التي اشتدّ تحرجها، فعرفت أن المخابرات الإسرائيلية تطلبني وقد حولت أوراقي إلى مكتبها في المعبر. وقالت الشابة: "حسب الاتفاق هذا من حقهم".
وفيما أنا منصرف عن المنصّة، وجدتني وجهاً لوجه أمام فوزي عودة، وعرفت أن هذا الضابط في قوات الثورة الفلسطينية قد صار مقدماً في شرطة السلطة وأوكلت إليه السلطة مسؤولية المعبر الذي أنا فيه. وترك فوزي ما كان قادماً من أجله واصطحبني إلى حجرة مكتبه وطلب لي فنجان قهوة ليروق مزاجي كما قال. وتحدث فوزي في الهاتف إلى من أدركت أنه الإسرائيلي الذي طلبني. وقال فوزي ما يمكن قوله في هذا المقام: "الأستاذ فيصل صديقي، وهو كاتب وعضو مجلس وطني، وهو ضيف الرئيس الفلسطيني وصديقه"، وما إلى ذلك مما توخّى صاحبي أن يبهر به من أنا مطلوب منه.

- هي مسألة سؤال وجواب، ستذهب حالاً إلى الذي استدعاك ولن يحوجك إلى الانتظار.
وهداني شرطيّ فلسطيني إلى باب لا يحق له هو أن يتخطّاه وهناك، تسلّمني إسرائيلي من أعوان رجل المخابرات، فسرت وراءه وكلانا صامت. وانتهينا إلى حيث ينتظم صفّ طويل من الفلسطينيين الذين استدعوا قبلي. وخطر لي أن أقف في آخر الصف مع علمي بأني غير مطالب بالانتظار. ألا يحرج المقهور أن يتخطّى مقهورين مثله ويتميّز عنهم. إلاّ أن الإسرائيلي حثّني على المتابعة بإشارة من يده صارمة الدلالة، فسرت وراءه في موازاة الصفّ خافض الرأس. وفجأة، هدر صوت بإسمي، وكان صاحب الصوت هو حنّا ناصر رئيس جامعة بيرزيت الذي أعتزّ بعلاقتي الطيبة به. وشئت بالطبع أن أقف وأسلّم على الصديق الذي ألقاه لأول مرة على أرض الوطن. غير أن الإسرائيلي سحبني من يدي سحباً ثم وقف بي أمام باب طَرَقَهُ طرقةً خفيفةً وفتحه ودفعني إلى الداخل. ووجدتني إزاء رجل في ملابس مدنية جالس على كرسي خلف مكتب وأمام المكتب كرسي آخر شاغر.
تلقّاني رجل المخابرات الإسرائيلي بنظرة تفحّصتني بصرامة منذ ولجت باب حجرته. وعندما صرت أمام الرجل، وقف هو، ومدّ يده للمصافحة، وقدّم نفسه بهذا الاسم العربي : "فريد".

ورحّب الرجل بي بعربية طلقة، بعبارات إن كنّ من العبارات الجاهزة فهنّ مما لا يستخدمه الإنسان إلا حين يصطنع المودة.

- فريد اسم مستعار بالطبع.
أردت أن يفهم رجل المخابرات بهذا أني لست غرّاً تأكل المجاملات حذره ولا قليل الخبرة. وقد تجاهل هو ملاحظتي حتى لكأنه لم يسمعها، وواصل ما بدا لي أنه أسلوب مهنيّ تدرب عليه، فكرر الترحيب. كان هذا رجلاً في عقده الرابع، ومع أنّي تأملته لأعرف منبته فإن ملامحه لم تشِ بهذا المنبت، فهي ليست اشكنازية كما أنها ليست سفاردية وليست حتى بين بين. ودلّ حديث الرجل على أنه يتقن العربية إتقاناً متميزاً ويستخدم اللهجة التي يستخدمها من حصّلوا من الفلسطينيين تعليماً عالياً. إلاّ أن نطق الرجل بعض الحروف اتسم بلكنةٍ تكشف أنه ليس من أبناء العربية وإن بدا أنه يحرص على إخفاء هذه اللكنة. اللكنة ومحاولة إخفائها، وزيف الترحيب، والإفراط في استخدام عبارات المجاملة الجاهزة، هذا كلّه قوّى حصانتي ضدّ الوقوع في أفخاخ الكلام. ودون أن أقصد ذلك، انبثق من خزين المرارات ما تحويه الذاكرة من جرائم رجال المخابرات الإسرائيلية، فتفاقم ضيقي، واحتجت إلى استنفار إرادتي بأشدّ قوّتها كي أسيطر على ردّ فعلي.
شاء الرجل، على ما بدا لي، أن يجعل ترحيبه بي فاتحة لحديث تنحلّ فيه تحفّظاتي، فبدا لي غبياً لأنه اختار هذه الفاتحة الزائفة بالذات.
كنت على يقين من أن المرحب بي لا يُكنُّ لي أي مودّة، ولا تبهره الصفات التي أضفاها عليّ المقدم فوزي، وليس في عودتي إلى وطني الذي يحتلّه جيشه ما يسعده. وما دام الرجل قد غالى في الترحيب، فإنه لم يزد على أن دفعني دفعاً إلى الإحساس بأنه يستغبيني. وقد تحتمل أن يستغبيك من ليس عدواً لك، أما أن يستغبيك عدوّ فهذا فوق الطاقة.
هل فطن رجل المخابرات إلى هواجسي؟ لا أظنّ أن هذا المحترف قد فطن لأيّ شيء، فلو أنه فطن لَما أمعن في اصطناع المودة. وأغلب الظنّ أن الرجل نسب صمتي وهو يرحب بي إلى دهشتي إزاء حسن استقباله. وفيما هو ماضٍ في ما بدأ به، أخذت المسافة التي تفصلني عنه تمتلئ باللزوجة. الاسم المستعار من أسماء العرب، والابتسامة المرسومة بريشة المهنة القبيحة، والمغالاة في الزيف، فهل يمنعني الختل عن التفكير بأنّ هذا الرجل ذاته ربما عذّب بيديه زملاء لي وأصدقاء وأقرباء. ألم يرسل ناس المخابرات الإسرائيلية، على تعدّد مؤسساتهم، ألوفاً من أنبل أبناء فلسطين إلى المعتقلات، ألم يعذّبوهم ، ألم يفتكوا ببعضهم حدّ القتل، أليس الاحتلال في حدّ ذاته جريمة وهؤلاء هم عيونه وآذانه مثلما أنهم هم أنيابه. مقتنع هو دون شكّ بأن معسول الكلام يفتن العربيّ ويأسر إرادته، وهل يوجد محتلّ مبرأ من العنصرية. هل قلت اللزوجة؟ إن ما فصلني عن رجل المخابرات الإسرائيلية يستحق وصفاً أعفّ عن ذكره.

- اسمك؟
أخرجني السؤال من سهومي لكنه لم يوهن إحساسي بالتأذي.
- اسمي، عمري، مهنتي، وما إلى ذلك، هذا كله موجود في أوراقي وهي أمامك. أنت لم تستدعني لأكرر ما تعرفه.
لم يكن خفيفاً ذلك الرجل، غير أن الإجابة غير المتوقعة فاجأته دون شك. وخيل إليّ أني أربكت رجل المخابرات، لكنه بقي متماسكاً.

- هذا ليس تحقيقاً رسمياً، أحببت أن أتبادل معك حديثاً، حديث إنسان لإنسان، عرفت أنك كاتب، فأردت..

لماذا لا تدخل في الموضوع؟ -

- في الحقيقة ، أردت أن أعرف رأيك في الاتفاق. عندكم أكثر من رأي..

- هذا مكتب أمن، وأنا لا أستعرض في مكاتب الأمن آرائي السياسية، هذا المكتب أو غيره، فإن كانت عندك أسئلة بخصوص مسائل أمنية تنسبها لي فإني أصغي.

تركني الرجل أتمُّ ثورتي الصغيرة، لكنه لم يؤخذ بعنادي.

- إنه الفضول الشخصي ولا شيء غيره. أحبّ أن أتعرف على الطيّبين وأعرف آراءهم في ما يشغلنا كلّنا، فما الذي تخاف منه. لو سألتني عن رأيي لأجبت بكل سرور، فأيّ ضرر يصيبك إن أحببت أن أتعرف عليك؟

- الطيبون وغير الطيبين، يتعارف الناس في ظروف متكافئة ، يتبادلون الآراء برغبتهم وليس بالإكراه. بالإكراه يصير للأشياء أسماء قبيحة، أنت تعرف. وأنا لم ألتق بك برغبتي فأنت الذي..

هل كثير أن أعرف رأيك في الاتفاق؟ أنا لا أطلب أن تبوح بالأسرار. -

لماذا تشبث هذا المحترف بظنه أني غرّ. إني أعرفهم، وهم متماثلون، ناس المخابرات هؤلاء في كلّ مكان، قل أي شيء أمامنا في البداية وبعدها يأتي وقت قول ما نريد سماعه.

- رأيي في الاتفاق لا أعرضه أمامك. حكومتكم فاوضت منظمة التحرير الفلسطينية، منظمتي، وإذا كان عندي ما أقوله فإني أقوله لناسنا. فهل يرغمني الاتفاق على عرض آرائي أمام مخابرات إسرائيل؟

يبدو أن الملاحظة التي قلتها من باب المشاكسة كانت نقطة في الصميم. فالبروتوكول الذي ينظم إجراءات المعبر لا يجيز التنقيب في آراء العابرين. وأغلب ظنّي أن الرجل تصوّر أني مطّلع على هذا البروتوكول. والذي حدث أن رجل المخابرات وقف فجأة وبسط ابتسامته المهنية على وجهه، ومدّ يده لمصافحة الوداع، وسأل: "كاتب؟ فهل أنت كاتب سياسي أو أديب؟".

أن ينتهي اللقاء في هذا النحو، بهذه السرعة، أن لا أتعرض للمتاعب التي هجست بها، كان في هذا نجاة لم أتوقع الظفر بها بهذا اليسر، فوجدتني أقول بنبرة بارحتها روح التحدّي:

- الأدب والسياسة معاً، الأدب هو الحياة، والسياسة هي أيضاً الحياة.

ولدهشتي، أنا الذي صرت راغباً في الحديث، لم يُبدِ هو أيّ اهتمام بما أقول، حتى لقد خيّل إلى أنه لم يصغ إلى إجابتي.

فوجئ المقدم فوزي بعودتي : "لم تبرد القهوة التي طلبتها لك". فرويت ما جرى. وحثّني صاحبي على استعادة أدق التفاصيل. وهو الذي أفهمني أن البروتوكول يجيز لي أن أرفض الإجابة. لكن صاحبي الذي تلقى موقفي بارتياح حذّرني: "لن يفوّتوها لك، فهيئ نفسك لاستفزازاتهم"!.

توجهت إلى المخرج الذي مَثُل أمامي وأنا أظنّ أن متاعبي على المعبر بلغت نهايتها. غير أن رجل أمن إسرائيلي رابض وراء كمبيوتر استوقفني وعالج أزراراً على كمبيوتره ثم أفهمني أني مطلوب لتفتيش ما لم تفصح عربيته البائسة عن طبيعته. وتوجهت إلى حيث أشار رجل الكمبيوتر لأكتشف أني مطلوب لما يسمّونه التفتيش الأمني.

وهنا، أيضاً، كان في الانتظار عدد كبير من الخلق، فتوجب أن أنتظر ساعة، ساعة بحساب عقارب الساعة. أما بحساب المرغم على البقاء بغير حركة الذي تكتنفه النظرات المستريبة وفوهات البنادق، فقد بدت هذه الساعة دهراً مديداً. وحين طولبت بالتوجه إلى الركن المنزوي الذي يُجرون فيه هذا التفتيش، وجدت منصّة تقف وراءها فتيات الأمن الموكلات به، ولم أعرف إلى من منهن ينبغي أن أتجه، فبقيت حائراً إلى أن جاءني أمر إحداهن : "هون، من فدلك!". هذه العبارة التي ستبدو لمن يقرأها مهذبة جاءت مع النبرة التي صرتم تعرفونها انتهاراً لا صلة له بأي تهذيب. وبالنبرة ذاتها، أمرت بأن أبحث عن حقيبتي بين الحقائب المكومة في الركن. وحين جئت بالحقيبة، أشارت الفتاة إلى المنصّة، ونبرت: "حط شنتة هون!". فرفعت حقيبتي، ووضعتها عل المنصّة أمام الفتاة، فيما كانت هي قد شرعت في حديث مع زميل لها قدم من حيث لا أدري وأهملتني.

طالت وقفتي أمام المنشغلين بحديث بدا لي بغير نهاية. واشتدّ ضيقي، أنا المزروع في الموقف المحرج المتهيب من التفوّه بكلمة أو الإتيان بحركة. وحين انتهى الحديث آخر الأمر، كست الفتاة وجهها تكشيرة ويديها قفّازين، واستعاد صوتُها النبرة المنتهرة. وبهذا كلّه، سدّدت فتاة الأمن نحوي رشقة أسئلة: هل هذه الحقيبة لك؟ هل ساعدك أحدٌ على تعبئتها؟ هل فيها سلاح؟ مال؟ مجوهرات؟ هل حمّلك أحدٌ شيئاً لتنقله إلى إسرائيل؟ هل أنت، إذن، مسؤول عن كل ما في الحقيبة؟ فلمّا لم تشِ إجاباتي بما يريب، فقد صدر الأمر على الفور: "افتح شنتة!". وما أن عالجت قفل حقيبتي وفتحتها حتى طلبت الفتاة منّي، بالإشارة، هذه المرّة، أن ابتعد عنها وأجلس على مقعد قبالتها.

من هذا المقعد، راقبتُ اليدين وهما تجوسان في الحقيبة وتستخرجان حوائجي قطعة قطعة وتنتهكان خصوصية أشيائي بلا تستر، تبقيان قطعاً في الحقيبة وتكومان قطعاً أخرى إلى جانبها. وقد استخرجت اليدان الآلة الكهربائية التي تنظّم تنفسي أثناء النوم، أنا المصاب بداء يجعل رئتيّ أكسل من أن تقوما بالمهمة وحدهما. ويبدو أن الآلة حيّرت الفتاة. وكنت محتاطاً لهذا الموقف فأبقيت مع الآلة كرّاس التعليمات الخاص بها والتقرير الطبي الذي يصف لي استخدامها، لكن الفتاة لم تنتبه لوجودهما.

وشئت إزاء حيرة الفتاة أن أجتذب انتباهها إلى الكرّاس والتقرير، فنهضت عن المقعد ناوياً أن اتجه إليها، غير أن الصوت المنتهر زجرني: "إبكَ كرسيّ". ومن حسن حظي أني فهمت هذه العبارة التي لا تُفهم، فبقيت في كرسيّ. واستدعت الفتاة أحداً، فلبّاها من بابٍ خلفها فتى حمل الآلة ومضى بها، ثم استأنفت النبش والفرز حتى استوفته. وعندما أرجع الفتى الآلة، تصورت أن أوان خلاصي قد حان. لكنّ الفتاة كانت قد انشغلت من جديد بحديث جرى هذه المرة مع زميلة لها استوفت نبش حقيبة أخرى.

وفي حيرتي، أنا الذي رأيت ما جعلني أستحضر أجواء روايات فرانز كافكا، لم أدر ما إذا كان من حقّي أن أنبّه الفتاة إلى حاجتي للإنصراف أم إن في هذا مجازفةً بالتعرض للزجر. وبالرغم من اشتداد ضيقي، آثرت أن أنطوي على حنقي، وشحنت تصبّري بدفعة جديدة مما بقي من قوة إرادتي، وهدّأت نفسي. ومضت بحساب عقارب الساعة دقائق أخرى، صرتم تعرفون كيف أقيسها أنا بحساب الضيق، وأنا أهدهد الأمل بأن الفتاة ستنتبه لي ذات لحظة فتطلق سراحي. وحين حانت هذه اللحظة وانتبهت الفتاة إلى عملها من جديد، توقعت أن تستدعيني هذه الفتاة لألمّ حوائجي وأمضي بها. إلا أن الفتاة هتفت بدل ذلك بإسم، فلبّاها شاب تظهر ملامحه أنه من يهود اليمن. وحمل الشاب حوائجي المكومة إلى جانب الحقيبة ومضى بها. زمن آخر أطول، وضيق أشدّ، وفقدان حيلة معذّب، ثم عاد الشاب بحوائجي وألقاها إلقاء داخل الحقيبة. وفي هذه الأثناء، كانت الفتاة التي أنتظر منها

إشارة الخلاص قد انشغلت بحديث جديد. ولم أهتد أنا إلى وسيلة أنبّه بها الفتاة لوجودي دون أن أتعرض للزجر أو أثير ريبة العيون وفوهات الأسلحة التي تحيط بنا.
وأبقتني حيرتي في مقعدي دهراً آخر إلى أن صار وقع الانتظار أثقل من أيّ قدرة على الاحتمال. فوقفت بجانب مقعدي مترددا بين التهيب والإقدام. وعندما انتبهت الفتاة إليّ بدا أن حركتي ساءتها، لكنها لم تزد عن أن رمتني بنظرة مؤنبة ودعتني بإشارة من يدها إلى المنصة ثم نبرت: "سكّر شنتة!". فتعجلت تسوية حوائجي وإقفال الحقيبة كيفما اتّفق، وهممت بالانصراف بها فيما الفتاة منشغلة بالحديث. لكن، ما أن حرّكت حقيبتي، وقبل أن أبرح بها المنصّة، حتى اتّضح أن يقظة فتاة الأمن ما زالت تشملني: "شو إنت ما بيفهم، حمار إنت؟ خلّ شنته وانكلع!". وجلجلت الشتيمة في المكان وسمعها كل من فيه.
رويت لكم هذه التفاصيل كلها لتدركوا سبب انفجاري بعد أن احتملت ما احتملت. لم أفهم سرّ استياء الفتاة ما دمت لم أخالف لها أمراً أو إشارة. كما لم أفهم لماذا ينبغي أن أنصرف بدون حقيبتي التي استوفي تفتيشها. فهل كان بمقدوري أن أواصل ابتلاع المهانات دون أن أنفجر. وجود المحتلّين في حدّ ذاته فيه ما يكفي من الاستفزاز حتى لو أحسنوا السلوك، فكيف والسلوك هو هذا الذي وصفت لكم بعضه!

انفجرت دفعة واحدة. فاض مخزون الحنق، قديمة ومستجدّة. وهدر كلام لم أنتق تعابيره ولم أدققها. إنه الحنق حين ينفثئ دمّله فيسيل ويهدر. ولم أنتبه إلى نفسي إلا حين رأيت الفتاة تبكي. نعم، بكت فتاة الأمن، فأذهلني بكاؤها.
كان المقدم فوزي قد غادر المعبر فانشغل معاونوه بالمشكلة، الجدل الممضّ مع أسياد المعبر، والاتصالات، ومكتب الرئيس في أريحا الذي يبدو أنهم استنجدوا به. كل هذا وأنا محتجز ومتهوم بأني أهنت موظفة أمن واعتديت عليها أثناء قيامها بواجبها وتمردت على أنظمة المعبر. ساعتان بحساب العقارب ولا داعي للانشغال بحساب آخر؛ مرّ الوقت وأنا أتوجس أني لن أنجو من هذه الورطة، فكيف تقاس أوقات الهواجس. وفي الختام، انعقدت تسوية. وقيل لي إن التسوية تيسرت لأن الفتاة سامحتني وغفرت لي تطاولي عليها. وصار عليّ وفق أحد بنود التسوية أن أطيّب خاطر الفتاة فأعتذر لها وأطلب رضاها ثم أشكرها على تسامحها.
و في الركن الذي أرجعت إليه لأصالح الفتاة، توجب أن أتبع بقية الإجراءات. ولما كانوا قد روضوني على احتمال الأذى حتى لا أتعرض لأذى أشدّ منه، فقد اتبعت هذه الإجراءات وأنا مستكين. واتضح أن من المحظور على العابر الفلسطيني حمل حقيبته بنفسه في أي مكان فيه ناس الأمن الإسرائيليون، وهؤلاء موجودون في كل مكان. أما كيف تعبر الحقائب المعبر فإن ساحباً آلياً يلقيها بعيداً. وقد وجدت حقيبتي وسط كومة الحقائب التي ألقاها الساحب على الجهة الأخرى من المخرج الذي يربض رجل الكمبيوتر عنده.
المحتل جائر، والواقع تحت سطوة الاحتلال ضحيّة. معتدٍ وضحية، هذا هو جوهر الوضع، وهو جوهر لا يبدّله نوع السلوك الشخصيّ لأي من طرفيه. ولن ينصلح هذا الوضع إلا بزوال الاحتلال.

- علينا أن نصبر. نحن على أول درب والمشوار طويل يا أخي ومعقّد. وليس لنا إلا الصبر.
بهذه الكلمات واساني موظف في الجمرك الفلسطيني الذي كان آخر من تعاملت معهم، فعرفت أنه قد انشغل بالمشكلة هو الآخر. وهذا الموظف هو الذي دلّني على الباص الذي يحمل العابرين إلى الاستراحة المخصصة لهم في أريحا وقال: "في الاستراحة تجد السيارات التي تنقل المسافرين إلى شتى الاتجاهات".

غادرت عمان في السابعة صباحاً. وغادرت المعبر الأردني بعيد الثامنة. ولو لم يكن الاحتلال الإسرائيلي موجوداً لبلغتُ أريحا بعد دقائق، سبعة أو ثمانية. أما مع وجود هذا الاحتلال، فقد بلغت أريحا في الثانية بعد الظهر.
أيها الوطن الذي لا وطن لنا سواه، كان الخروج منك موجعاً وصارت العودة إليك موجعة.
والسبب واحد في الحالتين والمسبّب!

فحص السائق الريحاوي إذن الزيارة بإمعان ونبّهني إلى أنه يجيز لي زيارة غزّة وحدها ويوجب أن أبلغ حدود القطاع قبل السابعة مساء. وقال السائق إن في التوقف على الطريق مجازفة، فرخصة سيارته تجيز له نقل الركاب على الطريق إلى قطاع غزّة لكنها لا تبيح له الوقوف. ولما لاحظ الرجل الذي طلبت منه أن يتوقف في أماكن بعينها أني أصغيت إلى تحذيراته بتفهم، فقد قدّم من تلقاء نفسه عرضاً.

- سنعبر الضفّة، وسنعبر بقية البلاد، هذه التي صار اسمها إسرائيل، وبإمكاني أن أخفّف السرعة في أيّ مكان تحنّ إليه حتّى تتملاه، أخفف السرعة لكن لا أقف.

ولئن صبّت شروح السّائق ماء بارداً على لهفتي، فقد منّتني برفقة رجل أريَحيّ. وما كان أحوجني في ذلك الظرف بالذات إلى مثل هذه الرّفقة!

أريحا بلدة أطفأ طول الإهمال ألقها الذي تحتفظ ذاكرتي ببريقه أنا الذي زرتها في العام 1956في رحلة مدرسية قادمة من سورية. ومخيمات أريحا، النويعمة وعين السلطان وعقبة جبر، هذه التي كانت تعجّ بالحيوية والنشاط السياسي خلت من سكّانها وصارت دورها أطلالا. على امتداد الطّريق شميم خراب، وفي معظم الأمكنة مظاهر عوز. والجزر القليلة الناجية تشعرك بأنها تنتظر أن يحلّ عليها الدور. أما القدس التي طلبت من السائق أن يبطئ منذ أشرفنا عليها فقد حلّ بها أوجع ما أثار مواجعي.

تحتفظ ذاكرتي بعتيق المدينة المضمخ بعبق التاريخ وجلال القداسة منذ أخذتني أمي إليها وأنا طفل لم يبلغ السادسة. وقد اغتنت الذاكرة بما انضاف إلى مخزونها في العام 1956. الجليل المقدس وعبقه، والعمائر التي تتطيّب بهذا العبق وتحيط بالعتيق فتحتضنه بانسجامها معه، العمائر التي لا مثيل لها إلا في هذه الناحية من العالم، والأماكن ذات الإيحاءات التي لا ضفاف لها. هذا كلّه فتكت به أطماع المعتدين، فتبدد العبق، وشاهت الأصالة، وغامت الإيحاءات، وفرضت سطوتها عمائرُ لها وظيفة المصارف وأخرى لها وظيفة الحصون الحربية وطرزها القبيحة. حرب الطمع ضدّ العراقة انتصر فيها الطمع. الحاجة إلى حماية نتائج العدوان من قوة الأصالة فتكت بالأصالة. القباحة ضد الجمال، هذا هو ما آل إليه حال القدس. افترس هوس العدوان روح السلام، ويا فيروز من حقّك أن تغنّي للقدس وتنوحي!

أما المستوطنات التي أنشئت بين مدن الفلسطينيين وقراهم، على روابي أرضهم وذرى مرتفعاتها، فقد داهمتني مظاهر الجدّة والترف التي تميّزها وتسطع وسط محيطها البائس، غير أن هذا لم يجعلها أقل عدوانية أو أقل تنابذا مع البيئة المحيطة بها. أقيمت المستوطنات بفعل فاعلين استندوا إلى سطوة العدوان وليس إلى أي شيء آخر. ولما كان هذا عدواناً سافراً لا يسوّغه أيّ مسوّغ، عدواناً مضاعفاً، على الناس وأرضهم وبيئتهم، على التاريخ والجغرافيا، على القوانين والقيم، على الذوق العام والذوق الخاص أيضاً، فقد بثّ وجود المستوطنات سموماً تملأ الأجواء، وكان هذا هو أقبح ما صدم مشاعري وأنا أعبر الضفة. ولئن طلبت من السائق أن يبطئ السير مرة فإني لم أكرر الطلب، بل صرت أتعجل

الخروج من طوق المشهد الذي يستفزني. وما كان أبعد هذا عمّا منّيت نفسي به: فرحة السفرة الأولى على أرض الوطن بعد غياب طويل عنه!

- ألا تحب أن أخفف السرعة في أي مكان؟
- سق بالسرعة التي تلائمك، ولا تهتم!

و لم أحتج بعد ذلك إلى من يقول لي إننا بلغنا المنطقة التي تشغلها إسرائيل. فقد صار دير اللطرون في مرمى النظر. وما كان أيسر التمييز بين متناقضين: مظاهر الخراب والعوز في الجهة التي عبرناها ومظاهر العمران والترف في الجهة التي أقبلنا عليها!

كنا نعبر خط الهدنة القديم، هذا الذي روّج الإسرائيليون من بين تسميات عديدة أطلقت عليه تسمية الخط الأخضر فكأنّهم تقصدوا النكاية بضحاياهم. وهنا، في المدى المعمور بالطرق المريحة والأبنية الفاخرة والحقول المشعّة بالرواء، هنا أيضا ضقت برؤية ما حلّ بوطني. ومن الذي تمتعه رؤية وطنه وقد استأثر الغاصبون به وجعلوه جنّة لهم وحظروا على أصحابه العودة إليه واستكثروا عليهم حقّ التوقف على أرضه أو تفقد ما ضاع منهم فيه.

كرر السائق سؤاله، وكررت إجابتي، وكدت أطلب منه أن يزيد السرعة. وعقّب هو بكلمة واحدة: "مفهوم"، قالها بنبرة امتزج فيها التعاطف والأسى، ثم صمت. ورحنا نجتاز القرى والبلدات، يشرح هو كيف بدّل الإسرائيليون أسماءها العربية وجعلوها عبرية، وأروي أنا ما أعرفه مما يتصل بالأسماء. الاستعمار الاستيطاني وقد هزم ضحاياه، وهذا هو تجسيده على الأرض، محو المعالم، وقلب التاريخ رأساً على عقب. وحين أقبلنا على المكان الذي كانت تقوم عليه قريتي المسمِيّة، أبطأ السائق السرعة دون طلب مني، وأشار إلى مبنى لا يعرف هو أنه محفور في ذاكرتي، وهتف: "كانت هذه هي مدرسة القرية. هدم الإسرائيليون القرية كما هدموا مئات غيرها في العام 1948، وبقيت المدرسة، وقد جعلوها مدرسة لتدريب شرطتهم".

ما كان أوجع ما وقع نظري عليه، مدرستي، سنوات دراستي الثلاث الأولى ورحلة الاستهداء بنور الحروف، هي ذاتها ماثلة أمامي، البناء الذي جلبت حجارته من صخور باب الواد، والباحة، والمدخل المفضي إليها، والذكريات، مدرستي هي هي لم تتبدّل وإن شُوّهت باحتها فأقيم فيها بإزاء حجرات الدراسة براكات لإيواء الجنود المتدرّبين.

و في النقطة التي تلت المدرسة، عند التقاء الطريق الذي قدمنا عليه مع الطريق الواصل بين يافا وغزّة الذي سنواصل السير عليه، جذب السائق انتباهي إلى لوحة كُتب عليها: "المسمِيّة". وكان هذا هو كل ما أقيم ليشير إلى ما كان في العام 1948 قرية المسمِيّة، أو قل: المسمِيتين، الصغيرة والكبيرة ومنازلهما التي كانت أعدادها مئات وسكّانهما الذين تجاوز عددهم ثلاثة آلاف. أشار السائق إلى اللوحة، أما أنا فحضرني ما كان قائما في ذلك المكان عند تقاطع الطريقين: محطّة القطارات، وحانوت سرّيس البقال الذي كان يعدّ أشهى الفلافل، وعبثنا نحن تلاميذ المدرسة في هذا المكان الذي كنّا نرتاده كلّ يوم. وبعد أمتار، وكانت السرعة ما تزال بطيئة، مَثُلَت أمامي محطّة البنزين التي كان يملكها زوج

أمي والتي طالما شهدت عبثي مع مجايليّ من أبنائه. ولكَم عنّاني أن يمثل أمامي كلّ هذا الذي حُرمت منه!

- بودّي أن تسرع!

ومع أن السائق أطلق لسيّارته العنان، فإن أوجاعي لم تخفّ، فذاكرتي تختزن أسماء المواقع التي توالت وتطفح بذكرياتي فيها ومعلوماتي عنها وعن ما حلّ بها على يد غاصبها.

- هانت، اقتربنا.

قال السائق هذا وهو يدخل في طريق متفرّع من الطريق العريض ويشير إلى لوحة تؤشر نحو غزة. ولم يلبث أن أطللنا على منشآت أشبه بمنشآت معسكر حربي.

- إحضّر أوراقك!
كنّا قرب بيت حانون، في مركز التفتيش الإسرائيلي على مدخل قطاع غزّة، أو المعبر الذي أغفل المحتلّون الاسم الفلسطيني للمكان الذي أقاموه عليه، والذي اشهروه باسم معبر إيرز.

- هذا هو حدّي، لا يحق لي أن أتخطّاه، تنزل هنا وتتبع الإجراءات.

وشرح السائق ما ينبغي اتباعه. وقبل أن أفارق الرجل الأريَحيّ، استخدمت هاتفه النقّال واتصلت بمنزل أخي الذي تقيم أمي فيه.

- ليجيء شخص واحد منكم لاصطحابي، واحد فقط، لا أريد احتفالاً، وأنا أنذركم: إن جاء أكثر من واحد فسأرجع إلى المكان الذي جئت منه.

ما من شك في أن هذه كانت فاتحة سمجة لحديثي مع زوجة رباح التي ردت على الهاتف. غير أنّه المزاج الذي عكرته الرحلة، وهو ضيقي بالذين جعل الواحد منهم من رجعته إلى الوطن مناسبة للتباهي بعدد مستقبليه على الحدود. ولا بدّ من أن نبرة صوتي كانت حازمة الدّلالة، أو لعلّها كانت غريبة. فزوجة الأخ التي عهدتها مهذارة على الهاتف وبارعة في تدوير العبارات لم تعقّب بغير كلمة واحدة: "حاضر!".

هل خبرتم معبر إيرز هذا. هل عاينتم ما تفرزه العنصرية المسلحة بسطوة القوة وكيف تهبط بمرتبة إنسان إلى مرتبة بهيمة. وهل بقي في زمننا من يعامل البهائم كما يعامل الإسرائيليون الفلسطينيين. وهل بينكم من لا يعلم، من لم يرَ أو يسمع أو يقرأ، كيف يُعامَل الفلسطيني على يد محتلّي وطنه. إذن، لماذا أكرر الوصف وأثير المواجع، أنا الذي لا يحبّ التكرار ولا يتوخّى استدرار أي دموع.

ييللا! كانت هذه اللفظة المنتهرة هي آخر ما رُميتُ به وأنا أتبع إجراءات التفتيش والتدقيق، رماني بها الجنديّ الإسرائيلي الذي أجرى آخر فحص لأوراقي. وبعدها، صار علي أن أضيف

ثقل حقيبتي إلى أثقال روحي وأعبر بأثقالي الممر الضيق المؤطّر بقضبان الحديد المخصّص لعبور أهل البلاد حين يبيح لهم الاحتلال أن يجيئوا إلى قطاع غزة أو يخرجوا منه. وعند نهاية هذا الممر الذي يذكّر ضيقه بممرات البهائم، وإن كان أطول منها، تبدأ منطقة السلطة الفلسطينية. وقد انتصب هنا حاجز صدمني، أنا الخارج لتوّي من شبكة الحواجز الموحية بالسطوة، كم هو هزيل ومتطامن.

- أوراقك، إن سمحت!

قالها فتى فلسطينيّ في زيّ الشرطة يقف على الحاجز وهو ينظر إلي نظرة لا معنى لها.

- هل تملك صلاحيّة منعي من الدخول؟
- ...
- هل لك حق إعادتي إن وجدت أوراقي ناقصة؟
- ...
- إذن، لماذا تتعب نفسك؟

داهمت الفتى فاقد الحول بأسئلتي فكأني كنت أداهم السلطة كلّها وأكرر رأيي في الاتفاق الذي لم يمنحها سوى المظاهر. لكن، ما أن انفثأ ضيقي حتى ندمت، لقد جبهت فتىً غريراً بما هو أكبر من قدرته على الفهم واتبعت سلوكاً طالما انتقدته أنا نفسي: التطامن إزاء ذوي السطوة وانتضاء العزم إزاء الذين لا حول لهم ولا قوة. وقد نبّهني ذهول الشرطيّ المغلوب على أمره إلى أنني أثقلت عليه دون سبب.

- اعذرني يا بني، أنا لم أقصد...

وقبل أن أتم اعتذاري، هتف فتى مقبل عليّ من ناحية الحشد الذي ينتظر القادمين:

- عمّي!

عرفني ابن أخي، فأنا كما قال وهو يستسلم لذراعي أشبه أباه، الهيأة، والصوت، وفورة الأعصاب. وتحدّث الذي طفح البشر من كلّ شيء فيه، تحدث اللهجة الغزّاوية الصافية التي يفتنني جرسها، فيا أيتها الأشواق المخزونة نحّي الأسى وفيضي، فها أنا ذا قد صرت في غزّة مرة أخرى وهي ليست بعيدة عن المسمّيات!

أمّي. أمّي وكل سنوات الفراق. الأم والوطن، ابتعدت عنهما أربعة عقود ونصف عقد وها أنا ذا أرجع إليهما كليهما في يوم واحد. أقصيت عن أمي ووطني وأنا طفل لم يتخطّ العاشرة. وكنت وقتها بلا حول ولا خبرة ولا عدّة لمواجهة الحياة. وها أنا ذا قد رجعت بستٍّ وخمسين أو سبع وخمسين طافحة بالخبرات. فقدت الإبصار بواحدة من عينيّ أثناء الحرب التي أبعدتني عن مسقط رأسي، وفقدت السمع بواحدة من أذنيّ في حرب أخرى من الحروب التي لحقتني في المنفى، فصرت لا أرى محدّثي إن جلس على يساري ولا أسمعه إن جلس على يميني. احتلّ داء لا شفاء له ظهري، واحتلّ داء آخر لا شفاء له صدري، وتناوشتني شتى الأمراض، وصرت لا أرتاح في قيام أو قعود ولا أهنأ في صحو أو نوم، ولم

تعد الآلام تبارحني. مع هذا، بالرغم من كل ما حلّ بي في المنافي، ها أنا ذا قد رجعت ولديّ العزيمة وإرادة الاستمرار، بل الرغبة في مواصلة الإنهماك في المعامع، أيضاً، والقدرة على التجلّي فيها.

أمي والوطن في يوم واحد. إني محتاج إلى أم تحدب عليّ وإلى وطن أحظى فيه بما يخصني. وها أنا ذا قد رجعت، فهل ظفرت بما أحتاج إليه؟

لا تتعجلوا الحصول على إجابتي، ليس لأني أضنّ عليكم بأي إجابة، بل لأني لم أبلغ أي يقين!

خرّب الاحتلال الوطن وحظر تطوره وإن بقيت جذورٌ عجز عن اقتلاعها. وبدّلت صروف الدّهر أمي وأهرمها تواتر المتاعب وإن بقيت لها القدرة على الاحتمال. ولكم أصاب الذين ربطوا بين الأم وبين الوطن، ليس رمزياً فقط هذا الربط البليغ، ألم أره مجسداً أمامي أتمّ تجسيد.

أطلقتْ أمّي وأنا أجتاز باب الدّار زغرودة صدح رنينها في الحيّ، وهاجت. زغردت التي تجاوزت السبعين كما لم تزغرد إلا حين كانت في عزّ صباها، وهاهت أجود ما جادت به قريحتها هي المشهود لها بالابتكار في هذا المجال. استعادت العجوز فتوتها، ورقصت، ودارت حول نفسها، ذراعاها مفرودان وقدماها يخبطان الأرض. واستحوذ الوجد على المنتشية بعودة الغائب فصمت كل ما حولها. ولم تتوقف أمي إلا بعد أن كاد يُغمى عليها. وما أن استعادت أمّي قوتها حتى جذبتني إليها، واحتضنتني، وراحت تتحسس جسدي أو قولوا: تتفقده؛ ألا تتفقد الأم جسد طفلها الراجع إلى الدّار بعد أن أشقاه عراك الشوارع. وكانت أولى عبارات أمي هي هذه العبارة التي سأتذكرها بعد وقت قصير وأظل أتذكرها بقيّة عمري:

- الآن، أستطيع أن أموت وأنا مرتاحة البال.

حظيت من أمي وأنا في المنافي بأربع زيارات قصيرة، زارتني مرة في دمشق، ومرة في بيروت، وثالثة في قبرص، ورابعة في عمان، ولم تبدر منها في أي مرة إشارة ضعف أو يأس. وعندما قالت أمي هذه العبارة، لم أتلقّها بمعناها الظاهر بل حسبتها طريقة في التعبير عن ارتياحها لعودتي. وحين زغردت أمي من جديد وهاهت وتتابعت زغاريدها وأطربتني مهاهاتها المبتكرة، لم يتبق لعبارتها هذه أي أثر.

كانت تلك زغاريد بهجة ومهاهاة تنبثق عباراتها من حبيس اللوعة، وكانت إعلاناً ينبئ الداني والقاصي، المحبّ والمبغض، الغابط والحاسد، أن الولد الذي طال غيابه قد رجع. ولا شك في أن الحيّ التقط الإعلان وانداح النبأ منه إلى كل مكان في غزة. فقد اكتظت الدار بالوافدين للتهنئة بسلامة وصولي، واختلط الجيران والأصحاب والأقرباء، نساؤهم ورجالهم وكتائب أطفالهم. فهل يمكن ألا يغسل هذا الاستقبال القلب.

كانت لمى ابنتي وزوجها عَدِيّ بين أوائل الوافدين فاتضح أنهما يسكنان في شقة قريبة. وما أسرع ما تفاهمت وإياهما، فإذا كان من المنطقي أن أقيم معهما في شقتهما فإني آثرت أن أبقى حيث تقيم أمي، أن أشعر الأم بأنها هي أخصّ من يخصونني وأعلاهم منزلة.

وتقبّل كل من لمى وعدي الأمر بتفهم هو، في أي حال، التفهم الذي ألفت أن أحظى به منهما على الدوام.

وعندما جاء رباح الذي بحثت زوجته عنه ولم تعثر عليه إلا بعد وصولي، وأخذت أنا الذي لم أره منذ عشرين سنة بالشبه الشديد بيني وبينه. كان الشبه قائما بالطبع عندما التقينا، رباح ومحمد أخي الثاني لأمي وأنا، في القاهرة، في السبعينات، لكن فارق السن ميزنا آنذاك بأكثر مما أظهر الشبه الذي بيننا. أما بعد هذه السنوات، بعد أن تجاوز رباح منتصف عقده الخامس، فقد صار يُشبهني حتى لكأنه توأمي. وأخذ رباح بما أُخذت أنا به، فتجمدت حركته للحظات قبل أن تطلقها الأشواق عناقاً وتحايا. وفيما نحن متعانقان، أطلقت أمي زغرودة مديدة وارتجلت مهاهاة وعاودت دورانها الراقص. ولقد خشيت أن يغمى على أمي فهممت بإيقافها، غير أن زوجة رباح سبقتني إلى حماتها ثم أخذت تطمئنني.

- لا تقلق، هو التأثر، غيابك طال، وأنت تعرف قلب الأم.

زوجة رباح اسمها نورا، وهو اسم يليق حقاً بطلاقة محيا الغزّاوية المليحة التي تزوّجت لاجئاً درس الطب في القاهرة كما يليق بالبِشْر الذي تبثّه أقوالها وحركاتها. ولم أكن قد التقيت زوجة أخي هذه من قبل، لكن رباح كان قد أراني صورتها ونحن في القاهرة حين كانا خطيبين. أما معرفتي بها فنشأت عبر المكالمات الهاتفية، هي التي كانت في الغالب أول من يردّ على الهاتف. وقد قادت نورا حماتها التي بدت على وفاق تام معها إلى صالة الجلوس وهيأت لها قعدة مريحة. واستكانت أمي دون أن تفقد يقظتها. وعلى كثرة الذين وفدوا للتحية من النساء والرجال وتنوع أعمارهم ومراتبهم، ظلت أمي هي مركز الجمع وسيّدته. ولي أن أشهد بأن إخوة رباح لأبيه، هؤلاء الذين أعدّ نفسي أخاً لهم، عاملوا أمي، هم وزوجاتهم وأبناؤهم وكل من يلوذ بهم، كأنها الملكة المتوجة عليهم بإرادتهم. وأشهد أيضاً بأن أمي بدت حريصة كل الحرص على أن تتمتع بحقوق ملكة.

- أخونا متعب وهو بحاجة إلى الراحة.

كنا قد اقتربنا من منتصف الليل فاضطر رباح التائق إلى الانفراد بي إلى أن يصرف الحشد. ولم أعترض، فقد كنت متعباً حقاً ومحتاجاً إلى الراحة حتى وأنا متوتر وغير قادر على الاستسلام إلى النوم. وما أن غادرنا الزوّار حتى اعتذر كل من لمى وعدي لأن عليهما أن ينهضا إلى العمل باكراً ومثلهما اعتذرت نورا المنهكة حدّ التهالك. وبقينا في الصالة ثلاثة، أمي ورباح وأنا. وحضر كأسان أعدهما رباح دون أن يستأذنني. ولأني أعرف أن أمي متدينة فقد استغربت أن يدعوني رباح إلى الشرب وهي حاضرة، أنا الذي تجنّبت في كل مرّة زارتني فيها أن أشرب أو يشرب أي من أصحابي في حضورها.

- أعرف أنك قليل دين مثل أخيك هذا، إخوته هنا كلهم متدينون. كنت به والآن جئت أنت، كنت بواحد فصرت باثنين، أرجو أن لا يعذّبني الله بجريرة أولادي.

!لم يكن في النبرة زجر، وما أكثر ما تُسامح الأم أبناءها

- أمّنا تؤدي الفرائض والنوافل، تصوم عن نفسها وعنّا، وإذا غفر الله لنا فبشفاعتها، أليس كذلك يا أمّي؟

استثمر رباح تسامح أمّنا. وراق الحديث، وانداح في شتى المدارات الحميمة.

- ألن تتزوج؟

يبدو أن السؤال راود أمي طويلاً، ولعلّها خشيت أن تبعدنا أحاديثنا عنه فألقته هكذا، بغير مقدّمات. ولأن السؤال فاجأني، فاجأني من وجوه عدة في واقع الأمر، فإني لم أجب عليه فوراً.

- وكّل أمرك لي، ولك أن أزوجك أحلى بنات البلد!

لا تقرّ أمي بأن الولد كبر، ولعلّها معذورة أكثر من أي أم، فهي لم ترني أكبر أمامها.

- هل تريدين أن أطلّق زوجتي، ألا يكفي أنّ في سجلّي ثلاث طلاقات...
- أنا لم أرك بعد أن قلت لي إنك تزوجت في فيينا، ولم أر زوجة. ظننت أنك قلت ما قلته لترضيني وتسكت لساني، ثم إنها أجنبية، هذه التي قلت إنك تزوجتها، فهل ستجيء الأجنبية إلى هذا البلاء الذي نحن فيه.

ما كان أحذق هذه الأم! استدرجتني في هذا النحو إلى الخوض في ما يشغل بالها. إني ابنها، وما أتمتع به من ذكاء ليس سوى نصيبي من ذكائها. شاءت التي كابدت غيابي الطويل عنها أن تتيقن من نواياي، هل جاء الولد إلى غزّة من أجل الزيارة أو من أجل الإقامة، وكانت تواقة بالطبع إلى أن أبقى. فهل كان بإمكاني، أنا الذي يملك غيري قرار إبقائي في وطني أو ترحيلي عنه، أن أعِدَ أمي في تلك الليلة بشيء.

في الصباح، قبل أن تكتظ الدار بالوافدين للتحية، هتفت للدكتور رمزي الخوري، هذا الذي كان في المنفى مديراً لمكتب الأخ القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية وصار في غزّة المدير العام لمكتب سيادة الرئيس. بكّرت في الاتصال لأني أعرف أن صاحب اللقبين كليهما لا يحضر إلى مكتبه مبكراً. وبهذا تجنبت أن أطلب التحدث مع القائد الذي سيحرجني أن يستجيب لطلبي كما سيحرجني أن يرفضه. وأظهر ردّ د. رمزي أني لم أفاجئه.

- عرف سيادة الرئيس أنك وصلت. فمتى ستجيء إليه؟

ووشت نبرة الصوت والترحيب المحسوب بأن لدى مكتب الرئيس تعليمات بشأني وهي إيجابية.

- الأخ أبو عمار كثير الانشغال، آخذ هذا في اعتباري، وأنا في كلّ حال بين أهلي هنا وعددهم كبير، ولست مستعجلاً.

اتبعت ما رسمته. فقد عزمت على أن أتفحّص الأوضاع قبل أن ألقى عرفات ولا أكتفي بما سمعته عنها. وأردت أن أحدّد خطوتي التالية، التي قد تصير الأخيرة وأنا واثق بما أفعله، فأذهب إلى الذي سأناقش الأمر معه وقد حدّدت بالضبط ما سأطلبه منه. وحين نبهني د. رمزي إلى ما تقضي به اللياقة، تملّصت.

- أريد أن أروي شوقي إلى أهلي، تعرف، ست وأربعون سنة، بل هي سبع وأربعون، وأقارب بالمئات، بل هم ألوف. ولن استغلّ وقت القائد من أجل لقاء مجاملة، سأسلّم عليه عندما أجيء إلى لقاء العمل.

ولكي ألغي احتمال تبديل ما اعتزمته، انتقلت إلى نقطة أخرى.

- لا تنس الشرط! أنت...
- عندما تحزم أمرك، هاتفني، وستحصل على الموعد في اليوم ذاته أو اليوم الذي يليه، وستكون الخلوة التي طلبتها، راعٍ فقط أن يكون سيادة الرئيس في البلد!

وفي المساء، حين خلت الدّار من الزوّار، حرص رباح على استقصاء ما أنوي عمله، فشرحت له ما اعتزمته. وبسط رباح رأيه، أخوه أنا، قال، وأنا عزيز عليه، أكّد، لكنه في السياسة يفصل بين الشخصي والعام.

- أنت محتاج إليه، وهذا مفهوم والدوافع إليه مشروعة. لكنه هو الآخر محتاج إليك ، ووساطة تصرفك صحيح مائة في المائة. لا يجوز أن تظهر بمظهر المتهالك على الالتقاء به، الدكتور أسعد عبد الرحمن ما كانت لتنجح لو لم يكن عرفات بحاجة إلى أمثالك.

كنّا، رباح وأنا، متفقين في هذه النقطة. فاتفاق أوسلو المثير للجدل دفع عرفات في طريق أبعده عن كثيرين من الذين أعانوه قبل أوسلو في أصعب الظروف. وفي عزلته، أحاط بالرجل أشخاص وزمر تكتنف كثيرين منهم الشبهات وتسوطهم الألسنة، وهو محتاج إلى الذين لا يحرجه وجودهم حوله.

ولقد كنت عازماً على استثمار هذا الظرف بأتمّ وجه، دون أن أهدر كرامتي. وهذا هو ما أغفى رباح وأنا ما أزال أشرحه له: استثمار الظرف دون إهدار الكرامة.
*****